تصريف المعاني في القرآن الكريم

د. عبدالعزيز بن صالح العمّار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تصريف المعاني في القرآن الكريم

د. عبدالعزيز بن صالح العمَّار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي. كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يتحدث البحث عن تصريف المعاني في القرآن الكريم، وله أهميته في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم؛ فهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي تعذر على البشر الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فضلا على كون التصريف لفظة قرآنية، وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما أنه منهج قرآني اتخذه القرآن في التعبير عن أداء معانيه، وإظهار موضوعاته. وقد تمت الإشارة – في هذا البحث – إلى أن هذا الموضوع لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه من الاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، مع وجود بعض الإشارات والمقولات المتناثرة هنا وهناك في الدرس البلاغي قديماً وحديثاً. قام البحث على الآيات القرآنية التي ذُكر فيها هذا المصطلح، وهي عشر آيات، وقد تم ذكرها خلال هذا البحث، وقد تم تقسيم البحث إلى سبعة مباحث انطلاقاً من هذه الآيات. وهذه المباحث هي:

المبحث الأول: تعريف التصريف لغة واصطلاحاً. المبحث الثاني: حِكَم تصريف المعاني في القرآن الكريم .المبحث الثالث: موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم . المبحث الرابع: موقف المؤمنين من تصريف آيات القرآن الكريم. المبحث الخامس: علاقة تصريف الآيات بإعجاز القرآن الكريم.

المبحث السادس: تصريف آيات القرآن الكريم في كتب البلاغيين. المبحث السابع: وقفة مع تصريف المعاني في آيات التصريف في القرآن الكريم. وقد تناولتُ هذا المصطلح بتوسع تنظيراً وتطبيقاً، تنظيراً ببيان المراد به، وجهود العلماء فيه، وإشارات المفسرين إلين، وكلام البلاغين فيه، كما تناولته تطبيقاً من خلال آيات التصريف نفسها؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وبيان كيف تم تصريف المعاني في هذه الآيات. ثم خاتمة البحث وفهرس المصادر والمراجع.

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا بأن أنعم علينا بالإيمان والقرآن، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جاء اختياري لموضوع "تصريف المعاني في القرآن الكريم"، لأهميته في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم؛ فهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي تعذر على البشر الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فضلا على كون التصريف لفظة قرآنية، وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما أنه منهج قرآني اتخذه القرآن في التعبير عن أداء معانيه، وإظهار موضوعاته، وسيقدم هذا البحث بياناً للمراد من التصريف، والآيات التي ذكُر فيها هذا المصطلح، وغاياته، وبيان موقف الناس جميعاً منه المؤمنين والكافرين، وبيان علاقته بإعجاز القرآن الكريم.

بالإضافة إلى أني سأدرس هذا المصطلح بتوسع تنظيراً وتطبيقاً، تنظيراً ببيان المراد به، وجهود العلماء فيه، وإشارات البلاغين إليه، كما سأتناوله تطبيقاً من خلال آيات التصريف نفسها؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وبيان كيف تم تصريف المعاني في هذه الآيات.

ومن أهمية هذا الموضوع وبواعث دراسته: أن موضوع التصريف، وأقصد به تصريف معاني آيات القرآن الكريم لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه من الاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، مع وجود بعض الإشارات والمقولات المتناثرة هنا وهناك في الدرس البلاغي قديماً وحديثاً، وأريد من هذه الدراسة أن أجمع هذه الأقوال في مؤلَّف واحد، وأن أنظمها في عقد فريد يظهر حسنه في هذا البحث إن شاء الله.

وقد جاء هذا البحث – بناء على طبيعته – في مقدمة، وسبعة مباحث، وهذه المباحث هي:

المبحث الأول: تعريف التصريف لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: حِكَم تصريف المعاني في القرآن الكريم .

المبحث الثالث: موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم.

المبحث الرابع: موقف المؤمنين من تصريف آيات القرآن الكريم.

المبحث الخامس: علاقة تصريف الآيات بإعجاز القرآن الكريم.

المبحث السادس: تصريف آيات القرآن الكريم في كتب البلاغيين.

المبحث السابع: وقفة مع تصريف المعاني في آيات التصريف في القرآن الكريم .

ثم خاتمة البحث وفهارسه.

وبعد: فهذا ما سعيتُ إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه – سبحانه – وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المبحث الأول: تعريف التصريف لغة واصطلاحاً:

يدل معظم أصل مادة التصريف "ص، ر، ف" – كما يذكر ابن فارس – على رجع الشيء، ومن ذلك قولهم: صرفتُ القوم فانصرفوا، إذا أرجعتهم فرجعوا[1]، وقد أشار إلى هذا المعنى، وأضاف إليه الأصفهاني يقول: "الصرف: رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره"[2]، ويؤكد هذا المعنى – كذلك – ابن منظور حين بيَّن أن "الصرف هو ردُّ الشيء عن وجهه، يقال: صرفه يصرفه صرفا فانصرف، وبه نزل القرآن في قوله ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾[3] أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه"[4].

ومن معانيه: صرف الدراهم، وفيه إشارة إلى أن "الدينار صُرف إلى الدراهم، أي رُجع إليها، إذا أخذت بدله"[5]، ومنه – كذلك –: صروف الدهر، وذلك لأنه يتصرف بالناس، ويقلبهم ويردهم من حال إلى حال[6]، ولهذا يقال: "حفظك الله من صرف الزمان وصروفه وتصاريفه"[7]، ومن هذا المعنى – كذلك –: تصريف الرياح، وهو صرفها من جهة إلى أخرى، وتبديلها من حال إلى حال[8]، وتغييرها من وجه إلى وجه آخر.[9]

ومن المعاني – كذلك –: صرف الكلام، وهو الذي يعنينا هنا في هذا البحث، وله علاقة وثيقة بموضوع تصريف المعاني في القرآن الكريم، فمن تصريف الكلام: تزيينه والزيادة فيه، وإنما سُمي بذلك؛ لأنه إذا زُين صرف الأسماع إلى استماعه.[10]

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: صرف

(٣) التوبة: ١٢٧.

(٤) لسان العرب: مادة: صرف.

(٥) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

(٦) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

(٧) أساس البلاغة: مادة صرف.

(٨) يُنظر: لسان العرب: مادة: صرف، و: مفردات ألفاظ القرآن: مادة: صرف.

(٩) يُنظر: القاموس المحيط: مادة: صرف.

(١٠) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

ويؤكد هذا المعنى – أيضاً–: قول الفيروزآبادي صرف الحديث: أن يُزاد فيه، ويُحسن من الصرف في الدراهم، وهو فضل بعضه عن بعض في القيمة، وكذلك صرف الكلام[١]، كما أن في معنى التصريف إشارة إلى اشتقاق بعضه من بعض[٢]، وفيها معنى البيان والإيضاح، وذلك أن تصريف الآيات هو إيضاحها وبيانها[٣]، ولذا فهي من البلاغة والاقتدار على الكلام، ولذا فمن المعيب قولهم: " فلان لا يحسن صرف الكلام، أي فضل بعضه عن بعض ".[٤]

ومن هذه المعاني اللغوية للفظة " صَرفَ" جاء المعنى الاصطلاحي للفظة التصريف في القرآن الكريم، فقد تضمنت الإشارة إليه، والدلالة عليه، ففي المعاني السابقة الإشارة إلى رد الكلام بعضه على بعض، واشتقاقه منه، والإشارة – كذلك – إلى تزيين الكلام وتحسينه، والزيادة فيه من خلال هذا التصريف، والإشارة – كذلك – إلى معنى الإيضاح والبيان، كما أنه مُساقٌ مَساق المدح، وأن من لا يحسنه مذكور في سياق القدح والذم.

إذن فهذه هي المعاني اللغوية للفظة التصريف، كما أنها لفظة قرآنية وردت بهذا المعنى في عدة مواضع من القرآن الكريم، وفي سياقات متعددة، كما ورد هذا المصطلح في كتب بعض العلماء المتقدمين في الحديث عن بلاغة القرآن وإعجازه، كما سيأتي بيان ذلك في ثنايا هذا البحث.

ولكن الغريب في هذا الأمر أن هذا المصطلح لم ينل حظه وحقه بالاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، وعلى النقيض من ذلك المفسرون، فإن لهم جهوداً بارزة في بيان معنى التصريف، وذكر غاياته وحِكَمه من خلال تفسيرهم للآيات التي ذُكر فيها التصريف، ولذا سأذكر المعنى الاصطلاحي للتصريف من خلال كلام المفسرين، وبيانهم لمعنى التصريف، المراد منه.

---

(١) القاموس المحيط: مادة: صرف.

(٢) يُنظر: القاموس المحيط: مادة: صرف .

(٣) يُنظر: لسان العرب: مادة: صرف، و: القاموس المحيط: مادة: صرف.

(٤) أساس البلاغة: مادة: صرف .

ولذا فمن المناسب هنا ذكر الآيات التي ورد فيها التصريف، ليتم الربط بينها وبين معنى التصريف الذي يذكره المفسرون، وهذه الآيات هي:

الآية الأولى: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

الآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

الآية الثالثة: قول الله – تعالى –﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام: ١٠٥]

الآية الرابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

الآية الخامسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]

الآية السادسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]

الآية السابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

الآية الثامنة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]

الآية التاسعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

الآية العاشرة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]

وبعد النظر في كلام المفسرين لهذه الآيات وتأمله، وإمعان النظر فيه، تبين لي عدة معانٍ للتصريف، وفيما يأتي ذكر لهذه المعاني، وبيان المراد بها، وبيان للمفسرين الذين ذكروا هذه الأقوال، فمن معاني تصريف الآيات ما يأتي:

أولاً: البيان والتوضيح:

يدل على هذا المعنى قول ابن كثير في بيان معنى قوله – تعالى – ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] يقول: " أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه الباطل "[١]، وقد ذكر هذا المعنى في موضع آخر، فبين أن المراد بتصريف الآيات أي توضيحها وبيانها[٢]، ويذكر في موضع آخر أن معنى قوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الكهف: ٥٤] أن المعنى: أي بينا لهم الحجج، والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرعناه وبسطناه [٣]، ويكرر هذا المعنى في موضع آخر من مواضع آيات التصريف فيذكر أن معنى قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]أي " بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى"[٤].

وممن أشار إلى هذا المعنى – كذلك –: ابن عطية الأندلسي فذكر أن معنى قوله: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] " أي هكذا نبين الأمور "[٥]، وقد أشار الزجاج إلى هذا المعنى، فذكر أن معنى صرفنا: بينا[٦]، وممن ذكر هذا المعنى، وأشار إليه الطاهر ابن عاشور، يقول: " وأصل معنى التصريف: التغيير والتبديل؛ لأنه مشتق

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٥٠/٢.

(٢) يُنظر: المصدر السابق: ١٦٠/٢.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٧٠/٣ .

(٤) المصدر السابق: ١٠١/٣.

(٥) المحرر الوجيز: ٤١٤/٢ .

(٦) يُنظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢٤١/٣ .

من الصرف، وهو الإبعاد، وكُني به هنا عن التبيين والتوضيح؛ لأن تعدد أنواع الدلالة يزيد المقصود وضوحاً ".[1]

ثانيا: الترديد والتكرار:

وقد ورد هذا المعنى عند كثير من المفسرين عند تفسيرهم لآيات التصريف في القرآن، في معرض بيان المراد بها، وقد ذكر هذا المعنى الطبري، عند تفسيره لقوله – تعالى – ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] " يقول – تعالى ذكره – لنبيه محمدﷺ: انظر يا محمد بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء الكافرين بربهم الجاحدين نعمه، وتصريفنا فيهم "[2]، وممن ذكر هذا المعنى – كذلك – أبو السعود، فذكر أن معنى قوله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي " انظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة بترتيب المقدمات العقلية، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير"[3]، كم ذكر هذا المعنى في موضع آخر، فبين أن معنى "صرفنا"، أي "كررنا ورددنا على أنماط مختلفة، توجب زيادة وتقرير وبيان ووكادة ورسوخ واطمئنان"[4].

وممن ذكر هذا المعنى وأشار إليه البقاعي، فذكر أن معنى قوله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي " نكررها موجهة وفي جميع الوجوه البديعة النافعة البليغة"[5]، وممن أشار إلى معنى الترديد في بيان معنى التصريف أبو حيان الأندلسي، فبين أن المراد بقوله – تعالى – ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ " أي مثل هذا التصريف والترديد نرددها، وهي الحجج الدالة على الوحدانية، والقدرة الباهرة التامة"[6]، وذكر ابن عطية الأندلسي أن المراد بتصريف

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٥٤ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٣١٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٣٤.

(٤) المصدر السابق: ٥/ ١٩٤.

(٥) نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

(٦) البحر المحيط: ٤/ ٣٢٣ .

القول "هو: ترديد البيان عن المعنى"[1]، وممن أشار إلى هذا المعنى – كذلك – محيي الدين زادة، فذكر أن الله كرر في القرآن الكريم "تقرير جميع ما يحتاج إليه الإنسان في كل واحدة من النشأتين بوجوة مختلفة، وأساليب عجيبة، يتحير الناظر فيها بالتأمل والاستبصار"[2]، وممن ذكر هذا المعنى – كذلك – الشوكاني فبين أن معنى قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي "رددنا القول فيه بكل مثل، يوجب الاعتبار من الآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة"[3]، وممن ذكر هذا المعنى – أخيراً – الألوسي، يقول في معنى قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي "كررنا ورددنا على أساليب مختلفة توجب زيادة تقرير ورسوخ للناس من أهل مكة وغيرهم"[4]، ويقول في موضع آخر – في بيان قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ – أي "كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم في هذا القرآن الجليل الشأن "ه" لمصلحتهم ومنفعتهم".[5]

ثالثا: التفنن والتنوع:

ومن معاني التصريف التي يذكرها المفسرون: التفنن والتنوع في ذكر آيات القرآن، وبيان معانيه، ومن الأقوال الدالة على هذا المعنى: قول أبي حيان فيذكر أن المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي "لم نجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومحكماً ومتشابها، وأمراً ونهياً، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور، وجنوب وشمال"[6]، ويؤكد هذا المعنى – كذلك – البقاعي في قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: "أنا حولنا الكلام، وطرقناه في كل وجه من وجوه البيان،

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٨٤.

(٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٦٦.

(٣) فتح القدير: ٣/ ٢٥٧، وقد ذكر هذا المعنى في موضع آخر، يُنظر: ٤/ ٨١.

(٤) روح المعاني: ٨/ ١٥٩

(٥) المصدر السابق: ٨/ ١٥٩.

(٦) البحر المحيط: ٦/ ٣٦.

وألبسناه من العبارات الرائعة، والأساليب المتناسقة مما سار بها في غرابته كالمثل، يقبله كل من يسمعه، وتضرب به آباط الإبل في سائر البلاد بين العباد، فتبشر به قلوبهم، وتلهج به ألسنتهم"[1]، وأكد هذا المعنى في موضع آخر، فيذكر أن معنى قوله ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي "ذكرناه محولاً في أساليب وأفانين متنوعة ومؤتلفة))[2]، وممن أشار إلى هذا المعنى في بيان المراد بالتصريف أبو السعود، فذكر أن معنى قوله – تعالى – ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي "ومثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعاني الرائعة، الكاشفة عن الحقائق الفائقة، لا تصريفاً أدنى منه"[3]، وممن ذكر هذا المعنى السعدي يقول – في بيان معنى قوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ – أي "ننوعها ونأتي بها في كل فن، ولتنير الحق، وتستبين السبيل))[4]، وقد أشار إلى هذا المعنى في تفسيره لمعنى قوله ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ فذكر أن المعنى: "أي نوعناها أنواعاً كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات، والمقلقات، وتارة بذكر جهنم، وما فيها من أنواع العقاب، وأصناف العذاب)) .[5]

كما ذكر هذا المعنى الطاهر ابن عاشور – أيضاً – ، يقول: "تصريف الآيات: اختلاف أنواعها، بأن تأتي مرة بحجج مشاهدات في السموات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، فهي متحدة في الغاية، مختلفة في الأساليب، متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامها وخاصها، وهي أيضاً مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدمات العقلية، وغيرها من جهة الترغيب

(1) نظم الدرر: ٨٨/١٢ .

(2) المصدر السابق: ٣٥٠/١٢ .

(3) إرشاد العقل السليم: ١٧٠/٣.

(4) تيسير الكريم الرحمن:: ٣٢/٢ .

(5) المصدر السابق: ٣٥٤/٣ .

والترهيب، ومن جهة التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالإفهام على اختلاف مدارك العقول))[1].

ويؤكد في موضع آخر هذا المعنى، حيث ذكر أن معنى قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي " تفنن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة، المقتضية الواحدانية، فذلك تصريف أي تنوع وتفنن للآيات أي الدلائل))[2]، وممن ذكر هذا المعنى – كذلك – القاسمي، فبين أن معنى قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ " أي نوعنا في هذا القرآن الجامع للمهمات، وأنواع السعادات لمصلحة الناس))[3]، وممن ذكر هذا المعنى، وأشار إليه – أخيراً – سيد قطب، فأوضح أن المراد بـ" صرفناه" في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي " عرضناه عليهم في صور شتى، وأساليب متعددة ولفتات متنوعة، وخاطبنا به مشاعرهم ومداركهم، وأرواحهم وأذهانهم، ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب نفوسهم، وبكل وسيلة تستجيش ضمائرهم))[4]

وبعد: فهذه بعض المعاني المرادة من تصريف الآيات، ذكرتها من خلال أقوال المفسرين للآيات التي ذُكر فيها تصريف آيات القرآن الكريم، وأحب أن أشير في هذه المقام أني تعمدتُ نقل النصوص في بيان المراد من التصريف، لأبين تعريفه والمراد به، ويحسن والحالة هذه نقل كلام المفسر بنصه؛ للوقوف عليه، ولتبيين دلالاته، وقد أدى هذا إلى كثرة النقول وتعددها، من أجل تحقيق هذه الغاية، كما أنه لا تعارض بين هذا المعاني للتصريف، بل يكمل بعضها بعضا، وكل قول من هذه الأقوال يُعد وجها من وجوه هذا التصريف، وهذا البيان، بل لا أدعي أني أحطتُ بتعريفه وبيان المراد به، ولكنها محاولات جادة من خلال الوقوف مع كلام المفسرين، بعد ضم النظير إلى مثله، واستبعاد المكرر، والله ولي التوفيق.

---

(١) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٣٥، وذكر هذا المعنى في موضع آخر، يُنظر: ٢٦/ ٥٥ .

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ١٨٦.

(٣) محاسن التأويل: ١١/ ٤٠٧٣ .

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٧٠ .

المبحث الثاني: حِكَم تصريف المعاني في القرآن الكريم:

المتأمل في آيات التصريف يجد أن لها حِكماً سعت إلى تحقيقها، وغاية ترنو إلى الوصول إليها، ولأهمية هذه الحكم تم الحديث عنها، وإبانتها، بل النص عليها في هذه الآيات، وفيما يأتي بيان لهذه الحكم:

الحكمة الأولى: رجاء الفقه:

تمت الإشارة إلى هذه الحكمة في قوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

وفي هذه الحكمة دلالة واضحة " أن الله – سبحانه وتعالى – إنما أنزل هذا القرآن، وصرف فيه الآيات، لكي " يفهموا ويتدبروا عن الله آياته وحججه وبراهينه".[١]

وقد تضمن قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ بياناً لحكمة تصريف الآيات، وإنها لغاية عظيمة، وحكمة جليلة، والمعنى – كما يذكر الطبري –: أي "ليفقهوا ذلك ويعتبروه، فيذَّكَّروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخط الله منهم من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله – تعالى – ذكره، ورسوله ﷺ".[٢]

والمتأمل لهذه الآية يجد أن مفعول " يفقهون" جاء محذوفاً، والحذف لحكمة في هذا السياق، فالحذف هنا يفيد العموم، ولو ذُكر لانحصرت الحكمة في المذكور، وفي ذلك تقييد لهذا التصريف، والذي يتوافق مع عظمة هذا التصريف ومكانته وحكمه أن يكون مفعول " يفقهون" محذوفاً، وذلك لتذهب النفس في تقديره كل مذهب، وتسلك في تحديده كل مسلك، وهذا هو المراد.

كما أن في هذا الحذف حثاً للعقول على التأمل وإمعان النظر، وذلكم هو المطلوب والغاية من نزول القرآن الكريم، ولذا جاءت جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ مفصولة عن

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٦٠/٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣١٠/٩ .

الجملة التي قبلها، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال، فالجملة الثانية جواب عن سؤال ناشئ من مضمون الجملة التي قبلها، فقد أثار ذكر التصريف، والإشارة إليه ذهن المتلقي إلى الحكمة منه، والغرض الذي سعت له، فجاءت جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ جواباً عن ذلك كله، وبياناً له.[1]

ولذا تعددت أقوال المفسرين في تحديد المفعول وبيانه، فمن معاني الفقه: الاعتبار، والادكار، والانزجار[2]، كما أن من معانيه: التدبر، والنظر، يدل على ذلك قول ابن كثير: "أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته، وحججه وبراهينه"[3]، ومن معانيه – أيضاً–: العلم[4]، والمعنى من هذه الحكمة: أن يكون هذا التصريف سبباً في أن يغير حالهم، وأن ينتفعوا به، وأن يكون حالهم "حال من يرجى فهمه وانتفاعه"[5]، وأن يكون ذلك داعياً لهم أن "يقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد".[6]

ولا غرو أن يحقق التصريف هذه الغاية، وتكون له هذه الحكمة، وذلك أن "في اختلاف الآيات ما يقتضي الفهم، إنْ غربت آية لم تغرب الأخرى"[7]، وفي هذا دلالة واضحة وصريحة على أنه – سبحانه – أراد بتصريف الآيات، وتقرير هذه البيانات أن يفهم الناس تلك الدلائل، ويفقهوا تلك البينات، إشارة إلى أنه – سبحانه – "ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض وتمرد فهو – تعالى – ما صرف هذه الآيات لهم، والله أعلم".[8]

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير: ٨/ ٢٠٥.

(٢) يُنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٣١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٦٠.

(٤) يُنظر: البسيط: ٨/ ٢٠٥

(٥) نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

(٦) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٤٦.

(٧) البحر المحيط: ٤/ ١٥٦.

(٨) مفاتيح الغيب: ١٣/ ٢٠

وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى تلميحاً لا تصريحاً حين ختم تفسيره لهذه الآية بقوله " والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون".[1]

الحكمة الثانية: البيان:

تمت الإشارة إلى هذه الحكمة في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وفي لام التعليل في قوله " لـ" إشارة واضحة إلى هذه الحكمة، وكشف عنها، ولذا فإن هذه اللام – كما يذكر الزمخشري – حقيقية: " وذلك أن الآيات صُرفتْ للتبيين، ولم تصرف ليقولوا درست))[2]، وقد أكد هذا المعنى أبو السعود في قوله: " واللام على الأصل؛ لأن التبيين غاية التصريف"[3]، وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية تأكيد لهذا المعنى، يقول: في معنى قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ " أي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، فلله – تعالى – الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء".[4]

الحكمة الثالثة: إرادة التذكر:

جاءت الإشارة إلى هذه الحكمة في آيتين من آيات التصريف، وفي ذلك إشارة إلى أهميتها، وأنها حكمة بالغة، وغرض رئيس من تصريف آيات القرآن الكريم، وهاتان الآيتان، هما:

الآية الأولى: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]

والآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

---

(١) في ظلال القرآن: ١١٢٦/٢.

(٢) الكشاف: ٤٢/٢ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ١٧١/٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٨٢/٢.

والغرض من هذا التصريف بيَّن جلي، والحكمة ظاهرة واضحة، والمعنى: أن الله – تعالى – " صرَّف لعباده في هذه القرآن، أي نوّع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين، ووعظ وذكر؛ لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه، وما يضرهم فيدعوه".[1]

وإنها لغاية بينة وجليلة، كما أنها سهلة وميسرة، وقد أشار إلى هذا المعنى سيد قطب، يقول في قوله "لِيَذَّكَّرُوا" "فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر، والرجوع إلى الفطرة ومنطقها، وإلى الآيات الكونية ودلالتها".[2]

والخطاب في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ للكفار، علَّ هذا التصريف أن يكون دافعاً لهم للتذكرة، والاتعاظ، والتدبر، وأن يكون سبباً لهم للإقلاع عما هم فيه من الشرك والظلم والعناد. [3]

ولا غرو أن يكون هذا التصريف سبباً للتذكر والاتعاظ وداعياً له ومحققاً، وذلك أن الكلام إذا كان "مصرَّفا فيه على أنواع كان أقرب من الذكر، وأبعد عن السآمة"[4]، وقد أوضح هذا المعنى، وزاده بسطة وبياناً محيي الدين زادة، يقول: " ثم إن المقصود من التذكر والاتعاظ أن تطمئن قلوبهم إلى هذا المعنى الذي كُرر تقريره بوجوه مختلفة بقرينة قوله ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ فإن النفور مقابل للطمأنية، كأنه قيل: كررنا القول في هذا المعنى، أو كررنا هذا المعنى في هذا القرآن المنزَّل؛ ليتعظوا، ويطمئنوا إليه، فما يزيدهم إلا نفوراً فيه تعكيس بما ينبغي من حيث أن حق هذا التكرير أن يزيدهم اتعاظاً وطمأنية قلب، ومع هذا فزادهم نفوراً وعناداً".[5]

---

(١) تفسير الكريم الرحمن: ٣/١٠٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٢٣٠.

(٣) يُنظر: فتح القدير: ٣/٢٢٩.

(٤) البسيط: ١٣/٣٤٢.

(٥) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٣/٢٢٥.

ولذا فألمتأمل للفظة "لِيَذَّكَّرُوا" – المتضمنة لبيان الحكمة من تصريف آيات القرآن – يجد أن فيها التفاتاً، ومن بلاغة القرآن، ودقائق نظمه أن الالتفات التي تم فيها كان إلى الغيبة، فهو التفات من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين، وفي هذا إشارة من طرف خفي إلى موقف الكفار من هذا التصريف، وإلى عدم انتفاعهم به، وعدم تحقيقهم لهذه الغاية، فقد أعرضوا عن القرآن، وعن الإقبال عليه، وعن تحقيق غاياته وحِكمه، فأعرض الله عنهم، ولم يقبل عليهم بخطابه، جزاء وفاقاً[1]، وقد أشار أبو السعود إلى هذا المعنى يقول: " والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم، ويحكي للسامعين هناتهم ".[2]

الحكمة الرابعة: رجاء التقوى، وحدوث الذكر:

وردت الإشارة إلى هذه الحكمة من التصريف في قوله – تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]

تضمنت هذه الآية حكمتين من حِكم تصريف الآيات، أما الأولى فهي قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ والأخرى في قوله ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وثمة ربط بين تصريف الآيات وبين هذه الحكم، فتلك غايتها، وثمرة من ثمارها، وجميل أن يُربط تصريف الآيات ببيان غايته، وإظهار حكمته؛ فذلك سبب للإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، وإنها لحكمة جليلة، وثمار يانعة لهذا التصريف، وحسبك بالتقوى حكمة وثمرة وعلة لتصريف الآيات، فحسب هذا التصريف أن يكون سبباً لهم أن يؤمنوا ويتقوا.

جاء مفعول "يَتَّقُونَ" محذوفاً، وفي هذا توافق مع بلاغة هذا التصريف، وعظيم أثره، ونفعه عليهم، ومن هنا تعددت أقوال المفسرين في تقدير هذا المحذوف، ولكن هذه الأقوال على تعددها وتنوعها فإنها كلها محققة لهذه التقوى، وموجبة لها، فلعلهم

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير: ١٥/١٠٩.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٥/١٧٤.

بسبب هذا التصريف يتقون المحارم، ويجتنبون الفواحش[1]، وأن يجتنبوا الشرك، وعبادة الأوثان[2].

كما أن في مجيء لفظة "يَتَّقُونَ" فعلاً مضارعا إشارة إلى تجدد هذه التقوى، وتكرر حدوثها، وتنوع وقوعها.

وأما الحكمة الأخرى التي تضمنتها هذه الآية فهي قوله ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾، والمعنى: " أن يحدث لهم القرآن تذكرة فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله". [3]

وقد تضافرت جملة ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ – بما توافر فيها – مع جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ في الدلالة على هذا المعنى، وتحقيقه آكد تحقيق وأبلغه، فقد جاءت لفظة "يُحْدِثُ" فعلاً مضارعاً، وفي ذلك إشارة إلى تجدد حدوث هذه التذكرة، وتكرر وقوعها، فهي متجددة متكررة مع تحدد هذا التصريف، وتكرر حدوثه، وفي ذلك تعاقب لهذه التذكرة، ومداومة عليها من قِبلهم.

وفي تقديم الجار والمجرور "لهم" إشارة إلى هذا المعنى، فهم المقصودون من هذا التصريف، وهم المؤمل منهم أن يحققوا هذه الغايات، وأن يتأملوا هذه الحِكم، ففي هذا التقديم إشارة إلى الاهتمام بأمرهم، والعناية بحالهم، فلعلهم بعد هذا أن يهتموا بتصريف الآيات، وأن يقبلوا عليه، وأن يحققوا غاياته.

كما أن تنكير لفظة "ذِكْرًا" دلالة على عِظم هذا الذكر وتنوعه، ولذا فإن معنى "ذِكْرًا" أي يحدث لهم تصريف الآيات اعتباراً واتعاظاً وقيل: شرفاً، وقيل: طاعة وعبادة؛ لأن الذكر يطلق على هذه المعاني كلها. [4]

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٥.

(٢) يُنظر: معالم التنزيل: ٣/ ٢٣٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٦/ ١٧٨.

(٤) فتح القدير: ٣/ ٣٨٩.

والمتأمل لحكم التصريف في هذه الآية في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ يجد مغايرة في إسناد ترجي التقوى، وفي إسناد حدوث الذكر، فقد أُسند ترجي التقوى إلى المخاطبين في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ والعلة في ذلك: أن " التقوى عبارة عن انتفاء فعل قبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي، فلم يسند للقرآن"[1]، بخلاف حدوث الذكر فقد أُسند إلى القرآن، والعلة في ذلك: " أنه حَدَثَ بعد أن لم يكن، فجازت إضافته إلى القرآن".[2]

والمتأمل – كذلك – في حكمة تصريف الآيات في هذه الآية في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ يجد أن حرف العطف " أو" جاء بين هاتين الحكمتين، ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر، بل لا يكون أحدهما بدون الآخر، ولا يصح حدوث الاتقاء إلا مع الذكر، فما دلالة هذا الحرف " أو" في هذا المقام؟، وقد أورد هذا التساؤل الإمام فخر الدين الرازي، وأجاب عنه بقوله: " هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين، أي لا تكن خالياً منهما، فكذا ههنا، أو يقال: إنا أنزلنا القرآن؛ ليتقوا، فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث لهم ذكراً وشرفاً، وصيتاً حسنا، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى".[3]

إذن فهذه هي حكمة تصريف الآيات التي تضمنتها هذه الآية، ولا غرو أن يكون لهذه الآيات وقد نزلت بهذه الطريقة هذا الأثر، وتلك الغاية؛ وذلك أن " كونه مصرَّفاً فيه من الوعيد أكبر سبب، وأعظم داعٍ للتقوى، والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه لم يكن له هذا الأثر)).[4]

الحكمة الخامسة رجاء الرجوع:

وردت الإشارة إلى هذه الحكمة من التصريف في قوله – تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]

---

(١) البحر المحيط: ٦/ ٢٦١.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٠٥

(٣) المصدر السابق: ٢٢/ ١٠٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٢٥٤.

نصت الآية على الحكمة من تصريف الآيات في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، والسؤال يرجعون عن ماذا؟ لم يُذكر في الآية، فقد حُذف مفعول "يَرْجِعُونَ"، والغرض من هذا الحذف: الإطلاق، وإرادة العموم، وعدم التقييد بمذكور، فلو ذُكر المفعول لانحصر في المذكور، وفي هذا تقليل لحكم التصريف وغاياته، ولذلك حُذف المفعول لتعدد التقديرات، ولتذهب النفس في تعيينه وتحديده كل مذهب، ولذا تعددت أقوال المفسرين، وتنوعت في تقدير هذا المحذوف، فذكر الطبري أن المعنى ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر بالله وآياته، وقد أكد هذا المعنى الرازي، يقول: "لكي يرجعوا عن كفرهم، دل بذلك على أنه – تعالى – أراد رجوعهم، ولم يرد إصرارهم".[1]

ولا يخفى أن في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تعريضاً بكفار مكة، بأنهم أهل كفر وتكذيب، وإعراض وعناد، وأنه ما نزل هذا القرآن،وصرفت آياته إلا لكي يرجعوا إلى ربهم، ويقلعوا عما هم فيه.[2]

ولذا فإن جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ مستأنفة لإنشاء الترجي، وموقعها موقع المفعول لأجله، " أي رجاء رجوعهم، والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد، والرجوع من الله يستعمل مجازاً في الطلب، أي توسعة لهم وإمهالاً؛ ليتدبروا ويتعظوا".[3]

إذن فقد أنزل الله القرآن، وصرف في آياته ونوع لهذه الغاية، ولتلك الحكمة التي تم الإبانة عنها بقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلعل الكفار – بسبب هذا التصريف – "يرجعون إلى ربهم، ويثوبون، ولكنهم مضوا في ضلالتهم، فأخذهم العذاب الأليم ألواناً وأنواعاً، تتحدث بها الأجيال من بعدهم، ويعرفها الخلف من ورائهم".[4]

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٦/٢٨.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير: ٥٥/٢٦.

(٣) المصدر السابق: ٥٥/٢٦.

(٤) في ظلال القرآن: ٣٢٦٨/٦.

ومن حكم التصريف – كذلك – ما تضمنه قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥] فقد تضمن قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة أخرى من حكم تصريف آيات القرآن، ولكن تم إرجاء الحديث عنها، لأنها ستأتي في مباحث قادمة.(١)

وثمة حِكم أخرى للتصريف غير ما ذُكر من خلال هذه الآيات، ومن ذلك قول محيي الدين زادة، فذكر أن المراد بتصريف الآيات: " بيانها وإيرادها على الوجوه المختلفة المتكاثرة".(٢)، ثم بيَّن الحكمة من ذلك بقوله " بحيث تكون كل واحدة منها يقوي ما قبله من الإيصال إلى المطلوب "(٣)، وذكر القاسمي أن من حكم هذا التصريف: " إقامة الحجة على الناس جميعاً، وعلى الكافرين على وجه الخصوص، فقد عرف التصريف بأنه: " إيراد المعنى الواحد على وجوه كثيرة في سائر المواضع "(٤)، ثم بيَّن الحكمة من هذا التصريف بقوله: لتكمل الحجة على المخالفين المواضع ".(٥)

ومن حكم هذا التصريف وغاياته: طول التأمل، وكثرة التدبر لهذه الآيات التي صُرفت على معانٍ كثيرة، وأحوال متعددة ومتغايرة، وقد أشار إلى هذه الحكمة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، يقول: – بعد أن تحدث عن التصريف، وعن هذه الخاصية الأسلوبية التي تميز بها أسلوب القرآن الكريم، وبها صار معجزاً–: " واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو كان فناً من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى، وكان في الوقت نفسه مِنَّة يمنّها الله على الناس، ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة واستماعاً، وتدبراً وعملاً، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة، وسفه نفسه، اقرأ – إن شئت – قوله سبحانه في سورة الإسراء: ٨٩ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ

---

(١) يُنظر: صفحة: ٢٦ من هذا البحث.

(٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ١٩٦/٢

(٣) المصدر السابق: ١٩٦/٢

(٤) محاسن التأويل: ٢٤٥٦/٦ .

(٥) المصدر السابق: ٢٤٥٦/٦ .

فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، وقوله – سبحانه – في سوره الكهف: ٥٤ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾".[1]

* * *

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٣٤٥.

المبحث الثالث: موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم:

جاء الكشف عن موقف المشركين من تصريف آيات القرآن من خلال آيات التصريف، فقد تضمنت هذه المواقف، وبينته أتم بيان وجلاء، وفيما يأتي وقفة مع هذه الآيات لبيان موقفهم منه.

الموقف الأول:

جاء ذكر هذا الموقف، والإبانة عنه في قوله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

والمؤسف حقاً أن يكون هذا الموقف ناتجاً عن تصريف الآيات، ومنبثقاً منه، فقد كان منهم هذا الموقف بعد تصريف الآيات لهم، والمعنى – كما يذكر الطبري –: أي " ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر عن الادكار والاعتبار يعرضون "[1]، وقد أكد هذا المعنى ابن كثير يقول: " أي ثم إنهم مع هذا البيان يصدفون أي يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه"[2]، ومما يدل – كذلك – على أن هذا الموقف ناتج من تصريف هذه الآيات قول القاسمي: في بيان معنى﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ " أي بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها، فلا يتأملون فيها عناداً وحسداً وكبراً "[3].

وقد حُذف متعلق مفعول "يَصْدِفُونَ" ؛ إشارة إلى أن هذه الصفة صارت لازمة لهم لا تنفك عنهم، وأن موقفهم هذا من التصريف لا يتغير، والمعنى: " أنهم يعرضون إعراضاً لازماً لهم لزوم الصفة"[4]، وفي هذا إشارة إلى أن صدور هذه الصفة منهم، وأن يكون هذا موقفهم من تصريف آيات القرآن الكريم، هذا بحد ذاته ذم ومنقصة بحقهم، بغض النظر عن أي شيء صدفوا وأعرضوا.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٢٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٥٠.

(٣) محاسن التأويل: ٦/ ١٣١٧.

(٤) نظم الدرر: ٧/ ١١٩.

وثمة سرٌّ آخر في حذف مفعول "يَصْدِفُونَ" وهو إرادة العموم، وفي هذا مزيد تشنيع عليهم، دلالة على أنهم أعرضوا عن كل ما جاءهم من ربهم في القرآن الكريم الذي صُرفت لهم آياته.

وفي مجيء لفظة "ج" فعلاً مضارعاً إشارة إلى هذا المعنى، فقد أفادت تجدد حدوث هذا الفعل منهم، وتكرر وقوعه[1]، فقد تجدد الإعراض منهم، والصدوف عن آيات القرآن الكريم، فما زادهم نزول القرآن الكريم، وتصريف آياته إلا إعراضاً عنها وصدوفاً.

وفي لفظة الصدوف ودلالاتها بيان لهذا الموقف، وكشف له، فإن فيها معنى الميل والصد والإعراض عن الشيء[2]، كما أن في هذه اللفظة ودلالاتها سخرية بهم واستهزاء، وذلك أن هذا الموقف ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ "تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف، المعروف عند العرب، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف، فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف".[3]

الموقف الثاني

تم الإبانة عنه، وذكره في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥] جاءت الإشارة إلى موقفهم من تصريف الآيات في قوله ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ . الواو في قوله ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ ﴾ للعطف على فعل محذوف دل عليه السياق، أي نصرف الآيات؛ لينتفعوا بها، أو لتقوم عليهم الحجة، وليقولوا درست[4]، ولذا فإن قوله ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ علة لفعل محذوف، والتقدير: "وليقولوا درست نفعل ما نفعل من التصريف المذكور"[5]، يدل على هذا المعنى قول الواحدي: "دخلت الواو في

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٣٦/٧.

(٢) يُنظر: البسيط: ١٤٩/٨.

(٣) في ظلال القرآن: ١٠٩٢/٢.

(٤) يُنظر: فتح القدير: ١٤٩/٢.

(٥) إرشاد العقل السليم: ١٧٠/٣.

قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ عطفاً على مضمر، التقدير: وكذلك نصرف الآيات، لنلزمهم الحجة، ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ فحذف المعطوف عليه، لوضوح معناه".[1]

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى قولهم ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ بناء على تعدد القراءات الواردة في لفظة ﴿ دَرَسْتَ ﴾ يدل على ذلك قول ابن جرير الطبري: " واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك على قدر اختلاف القراء في قراءته"[2]، ثم يقول بعد أن ذكر القراءات المتعددة في لفظة ﴿ دَرَسْتَ ﴾: " وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب: قراءة من قرأه ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾، بتأويل: قرأت، وتعلمت، لأن المشركين كانوا يقولون للنبيﷺ، وقد أخبر الله عن قيلهم ذلك بقوله: ولقد نعلم أنهم يقولون ... وغير ذلك من القراءات)).[3]

إذن فمعنى قولهم ﴿ دَرَسْتَ ﴾ " أي قرأت على غيرك، وتعلمتَ منه، وحفظت بالدرس أخبار من مضى)).[4]

وثمة إشكال قد يرد على المعنى المتعلق به قول المشركين ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾، لأن هذا القول لا يناسب أن يكون علة لتصريف الآيات، فهل صُرفتْ الآيات لهذا الأمر؟ وليقولوا هذا القول؟[5]، وقد ذكر العلماء رداً الإشكال، وطرداً لهذا الفهم الخاطئ، وذكروا أن اللام في قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ليست للتعليل، وإنما هي لام العاقبة، أو لام الصيرورة، كما يسميها أهل اللغة[6]، والمعنى: أن عاقبة أمرهم، ومآل حالهم مع تصريف هذه الآيات أن يقولوا، وهكذا صار تصريف الآيات " سبباً لمقالتهم هذه، وذلك لشقاوتهم التي لحقتهم، وقضت عليهم، وهذا يدل على أنه – تعالى – جعل تصريف

---

(١) تفسير البسيط: ٨/ ٣٣٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٤٧٢ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٤٧٢، وللوقوف على القراءات الأخرى ومعانيها للفظة " درست"، يُنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٤٧٢، و: معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٢٧٩

(٤) محاسن التأويل: ٦/ ٢٤٥٦ .

(٥) يُنظر: التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢٢ .

(٦) يُنظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٢٨٠، و: الكشاف: ٢/ ٤٢ .

الآيات سبباً لضلالة قوم وشقاوتهم بما قضى عليهم في الأزل من الضلالة، وهذا كقوله ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥]".[١]

ولذا فهذه الآية نظير قوله ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨]، وهم لم يلتقطوه لهذه الغاية، ولكن كانت عاقبة هذا الالتقاط أن كان لهم موسى – عليه الصلاة والسلام – عدواً وحزناً، وكذلك الأمر في هذه الآية، والمعنى – كما يذكر الطاهر بن عاشور –: " أي نصرف الآيات مثل هذا التصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدراسة والتعلم فيقولوا درست، والمعنى: إنا نصرف الآيات، ونبينها تبييناً من شأنه أن يصدر من العالم الذي درس العلم، فيقول المشركون: درست هذا وتلقيته من العلماء والكتب، لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصل إلى صدور مثل هذا التبيين من رجل يعلمونه أمياً لا يكون إلا من قِبل وحي من الله إليه، وهم قد قالوا ذلك من قبل ويقولونه، ويزيدون بمقدار زيادة تصريف الآيات، فشُبه ترتب قولهم على التصريف بترتب العلة الغائبة، واستُعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة، على وجه الاستعارة التبعية ".[٢]

الموقف الثالث:

تم الإبانة عنه، وذكره في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، إذن فهذا موقفهم من التصريف، وذلك حالهم معه، فما زادهم تصريف الآيات إلا نفوراً، والمعنى – كما يذكر الطبري –: " إلا ذهاباً عن الحق، وبعداً منه وهرباً، والنفور في هذا الموضع مصدر من قولهم: نفر فلان من هذا الأمر ينفر منه نَفْراً ونفُوراً ".[٣]

وقد جاءت جملة ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ في أبلغ صورة في بيان موقفهم من التصريف، وفي أظهر صورة في تجليته وبيانه، وذلك أن جملة ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ في

---

(١) البسيط: ٨/ ٣٤٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٥/ ٢٤١.

محل نصب على الحال، أي والحال: أن تصريف الآيات، وتذكيرهم بها ما يزيدهم إلا نفوراً[1]، والغرض من هذا الحال: " التعجب من حال ضلالتهم إذ كانوا يزيدون نفوراً من كلام فُصِّل وبيِّن؛ لتذكيرهم، وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود ".[2]

جاء بيان حالهم، في ذكر موقفهم من تصريف الآيات بأسلوب القصر، بطريق الاستثناء بعد النفي، ولهذا القصر، بهذا الطريق دلالاته في هذا المقام، فليس لهم من الصفات، وليس لهم من المواقف إلا النفور، والبعد عن هذا البيان الذي صُرف لهم على أبلغ وجه وأحسنه، والمعنى: " إنما زادهم نفوراً، لأنهم اعتقدوا أنها شُبه وحيل، فنفروا منها أشد النفور لهذا الاعتقاد الفاسد، ومنعهم ذلك من التدبر لها، وإدراك منزلتها في عظم الفائدة، وجلالة المنزلة ".[3]

فضلاً عن دلالة لفظة " نفوراً" فإن فيها إشارة إلى نفورهم عن السماع، فضلاً عن التذكر والانتفاع، عما جاء فيه، والإقبال عليه، المؤدي إلى معرفة ما هم عليه من الكفر والقبائح.[4]

كما تضمن هذا الموقف الإشارة – كذلك – إلى شدة النفور، وكثرة الأعراض، تشبيهاً لهم بنفور الدابة ؛ وذلك أن النفور هو: " هروب الوحشي والدابة بجزع، خشية من الأذى، واستُعير هنا لإعراضهم تنزيلاً لهم منزلة الدواب والأنعام ".[5]

الموقف الرابع:

جاء الإبانة عنه، وذكره في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: ٨٩]، أي جحوداً للحق، ورداً له[6]، والمراد بالناس هنا:

---

(١) يُنظر: فتح القدير: ٣/ ٢٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير: ١١١/١٥ .

(٣) البسيط: ٣٤٢/١٣ .

(٤) يُنظر: نظم الدرر: ٤٢٢/١١، و: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٧٤ .

(٥) التحرير والتنوير: ١١٠/١٥ .

(٦) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٠، و: معالم التنزيل: ٣/ ١٣٦ .

أهل مكة، فهم الذين جحدوا الحق وأنكروه، " وذلك أنهم أنكروا القرآن، وكونه معجزة بعد قيام الحجة عليهم، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ".[1]

جاء نظم الآية في أبلغ عبارة، وأجزل جملة في الدلالة على موقف الكفار من تصريف الآيات، والإبانة عنه، فقد أوحت لفظة " أبى" بالتكسب والمشقة، وشدة الحرص على هذا الأمر، والتمسك به، كما أن فيه تغليظاً عليهم وإنكاراً.[2]

كما جاء الحديث عنهم في هذا المقام على خلاف مقتضى الظاهر، بطريق الإظهار في مقام الإضمار، ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: فأبوا، ولكنه أظهر فقيل: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، وفي ذلك تأكيد وتوضيح لموقفهم من تصريف الآيات، لتتضح الصورة، وليُعرف عنهم هذا الأمر عن القرآن الكريم وتصريف آياته.[3]

كما أن في قوله﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ " من المبالغة ما ليس في أبوا الإيمان؛ لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفر من الإيمان، والتوقيف في الأمر، ونحو ذلك، وأنهم بالغوا في عدم الرضا، حتى بلغوا مرتبة الإباء ".[4]

كما أن قوله﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ " تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أي تأكيده في صورة النقص؛ لما فيه من الإطماع بأن إباتهم غير مطردة، ثم يأتي المستثنى مؤكداً لمعنى المستثنى منه، إذ الكفور أخص من المفعول الذي حُذف للقرينة".[5]

وقد تكرر هذا الموقف نفسه تجاه تصريف الآيات في القرآن الكريم، فجاء ذكره وبيانه في آية أخرى في قوله﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٥٠]، ولا يخفى أن في ذكر هذا الموقف، وتكراره في موضع آخر من مواضع آيات التصريف إشارة إلى عظم هذا الموقف، وزيادة في التشنيع عليهم، ووصمهم به،

---

(١) تفسير البسيط: ٤٧٤/١٣ .

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٤٨٤/٣ .

(٣) يُنظر: فتح القدير: ٢٥٧/٣ .

(٤) إرشاد العقل السليم: ١٩٤/٥.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٠٥/١٥ .

ونعتهم فيه، فقد تكرر موقفهم ذلك بتكرر هذه الآيات تصريفها، فما يزيدهم تصريف الآيات إلا كفرا وعناداً، فلا غرو بعد ذلك أن يكونوا به كافرين وجاحدين.

الموقف الخامس:

جاءت الإشارة إلى موقف المشركين من تصريف آيات القرآن في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

ولا تخفى العلاقة بين هذا الموقف، وبين تصريف الآيات، وقد أشار إلى هذا العلاقة، وكشف عنها ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، يقول: " ومع هذا البيان، وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله، وبصره بطريق النجاة "[1]، وقليل ما هم إلا من رحم ربك.

جاء التعبير عن هذا الموقف بأجزل قول وأبلغه في قوله ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾، تم وصمهم بهذه الصفة؛ لعدم انتفاعهم من القرآن الكريم، ومن تصريف آياته، ولهذا استحق أن يوصف كل واحد منهم بأنه ﴿ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾؛ لأنه " لم ينته عن الجدل بعد هذا البيان الذي أضاء جميع الأكوان". [2]

كما أن في هذا الوصف إشارة إلى أن العناد جبلة فيه، متأصلة في جذور أعماقه، وليس لشيء تضمنه القرآن الكريم أثار هذا الجدل، وتلك المخاصمة، وقد أشار أبو السعود إلى هذا المعنى يقول – في قوله ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ " أي مجادلة ومنازعة فيه، مع أنه غير لائق بهم ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك عدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا القصور في بيانه وحجته وبرهانه ". [3]

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٠١.

(٢) نظم الدرر: ١٢/ ٨٨ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٦٦.

ولـيس التفـضيل فـي قولـه ﴿ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ علـى بابـه، وإنمـا هـو " مـسلوب المفاضلة، وإنما أتى بصيغته؛ لقصد المبالغة في شدة جدل الإنسان، وجنوحه إلى المماراة والنزاع حتى فيما ترك الجدال في شأنه أحسن ".[1]

وقيل: إن التفضيل فيه على بابه، وأن المعنى: " إن الإنسان أكثر جدلاً من كل ما يجادل من ملائكة وجن، وغير ذلك"[2]، وذلك؛ " لكونهم مجبولين على المجادلة والمخاصمة والعناد، بها يقطعون الطريق على أنفسهم، فتارة يجادلون مع الأنبياء، ولا يقبلونهم بالنبوة والرسالة ويقاتلونهم، وتارة يجادلون في الكتب المنزّلة، ويقولون ما أنزل الله على بشر من شيء، وتارة يجادلون في متشابهاتها، وتارة في ناسخها ومنسوخها، وتارة في قدمها وحدوثها، ونحو ذلك، ولو تفرغوا من المجادلة إلى المعادلة والمجاهدة، ومن المنازعة إلى التعلم والمطاوعة لامتلأت قلوبهم بنور المعرفة والهداية، وتوصلوا بذلك إلى عزّ الدارين، و كان الإنسان ظلوماً جهولاً".[3]

جاء التعبير عن الإنسان في هذه الآية بـ" شيء"؛ ليحد من غروره، وليقلل من شأنه؛ عله أن يرعوي عن هذا الجدل، وينفك منه، وألمح إلى ها المعنى، وأشار إليه سيد قطب، يقول: " ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه " شيء"، وأنه أكثر شيء جدلاً؛ ذلك لكي يطامن الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً بعدما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل".[4]

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٣٤٧/١٥ .

(٢) المحرر الوجيز: ٥٢٤/٣ .

(٣) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٢٦٦/٣ .

(٤) في ظلال القرآن: ٢٢٧٥/٤ .

المبحث الرابع: موقف المؤمنين من تصريف آيات القرآن الكريم:

ذكرتُ في المبحث السابق موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم، من خلال الآيات التي تحدثت عن تصريف القرآن، وقد تضمنتْ بيان ذلك الموقف أتم بيان، وكشفته ووضحته بجلاء، إذن فهذا هو موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم، وقد حكاه الله عنهم وبينه أتم بيان من خلال هذه الآيات، وقد تجلى موقفهم في قوله ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾، وقوله ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ في موضعين من مواضع آيات التصريف، وفي قوله ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾.

ومن خلال ما تقدم من بيان موقف المشركين من هذا التصريف يتبين أن الناس انقسموا حوله قسمين، الأول، وهم المشركون، وقد تم بيان موقفهم منه، والقسم الآخر: هم المؤمنون، وقد تضمنت آيات التصريف الإشارة إليه تصريحاً وتلميحاً، وفيما يأتي بيان لهذا الموقف:

جاءت الإشارة إلى هذين الموقفين، وإلى هذا الانقسام حول تصريف الآيات في قوله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، سبقت الإشارة إلى موقف المشركين من التصريف في قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾، وأما في هذا المقام فسأتناول موقف المؤمنين في بيان موقفهم من تصريف الآيات، وذلك في قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، فقد تضمن قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الإشارة إلى موقف المؤمنين، يؤيد هذا الأمر ويؤكده وروده بعد موقف المشركين من تصريف الآيات في قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، يقول في معناها: " أي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء "[1]،ومن خلال هذا الآية يتبين بجلاء انقسام الناس، وتباين موقفهم من تصريف آيات القرآن الكريم،

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٨٢/٢.

ولذا فإن تصريف الآيات " يسعد بها قوم بفهمها، والعمل فيها، ويشقى آخرون بالإعراض عنها، فمن يقول للنبي درست فهو شقي، ومن يتبين الحق فيها، ويعمل بها فهو سعيد".[1]

ولذا فإن قوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بالتبيين، لكونهم المنتفعين لهذا التصريف، المدركين لغاياته[2]، يدل على هذا المعنى ويؤكده قول ابن عباس– في تفسيره لهذه الآية –: " يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد".[3]

ولذا فإن في قوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تعريضاً بالمشركين بأنهم لا علم لهم، ولو كانوا يعلمون ما أعرضوا عن القرآن، وقد صرفت لهم آياته، ولذا فهو تعريض بهم، وأنهم أجهل الجاهلين.[4]

وقد أشار سيد قطب إلى هذا الانقسام، وتباين موقف المؤمنين من موقف الكافرين في قضية تصريف الآيات، يقول: " فينتهي هذا التصريف إلى نتيجتين متقابلتين في البيئة، فأما الذين لا يريدون الهدى، ولا يرغبون في العلم، ولا يجاهدن ليبلغوا الحقيقة فهؤلاء سيحاولون أن يجدوا تعليلاً لهذا المستوى الذي يخاطبهم به محمد ﷺ– وهو منهم –، وسيختلقون ما يعلمون أنه لم يقع، فما كان شيء من حياة محمد ﷺ خافياً عليهم قبل الرسالة ولا بعدها، ولكنهم يقولون درست هذا يا محمد مع أهل الكتاب، وتعلمته منهم، وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شيئاً عن هذا المستوى... وأما الذين يعلمون حقاً فإن تصريف الآيات على هذا النحو يؤدي إلى بيان الحق لهم فيعرفونه ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ثم تقع المفاصلة بين قوم مبصرين يعلمون، وقوم عمي لا يعلمون".[5]

---

(١) البسيط: ٨/ ٣٤٣.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٧١.

(٣) معالم التنزيل: ٢/ ١٢١.

(٤) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٧١، و: التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢٣.

(٥) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٦٨.

وثمة آية أخرى من آيات التصريف أشارت إلى موقف المؤمنين من هذا التصريف، وذلك في قوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]. فالمؤمنون هم الذين شكروا ربهم على نعمة القرآن، وعلى تصريف آياته، وهم الذين آمنوا به، وأقبلوا عليه، وانتفعوا به، ولذا فإن في ذكر الشكر هنا إشارة إلى عظم هذه النعمة التي لا توازيها نعمة، وأن حقها الإيمان بها، و شكر الله عليها، وقد أشار أبو حيان الأندلسي إلى هذا المعنى بقوله: " ولما كان ذلك أكبر نعمة على الخلق قال ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ أي هذه النعمة التي لا تكاد توازيها نعمة".(١)

وقد جاء مفعول " يشكرون" محذوفاً؛ دلالة على كثرة هذه النعم التي يشكرون ربهم عليها، كما جاء هذه الحذف – كذلك – ليشمل النعم كلها، ولذا فهم يشكرون ربهم " على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة ".(٢)

كما أن في ذكر الشكر هنا إشارة إلى أنهم وحدهم هم الذين يقدرون قدر هذه النعمة، كما أنهم وحدهم المنتفعون بها، وأنهم وحدهم " الذين ينتفعون ما فصّل الله في كتابه من الأحكام، والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها، فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم معانيها بحسب استعدادهم ".(٣)

وهذه الآي نظير قوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٤)، فقد خُصَّ المتقون بالهدى؛ لأنهم وحدهم الذين انتفعوا به، وأقبلوا عليه، واهتدوا بهداياته وإشراقاته، فهم الذين " أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي

---

(١) البحر المحيط: ٤/ ٣٢٣ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٥٨/١٠ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ١٢١/٢ .

(٤) البقرة: ٢ .

سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع". [1]

وأما غير الشاكرين فلا ينتفعون بها، ولا يقبلون عليها، فضلاً أن يشكروا ربهم عليها، ولا غرو في ذلك؛ فهم أصحاب "القلوب الخبيثة التي لا خير فيها فإذا جاءها الوحي لم يجد فيه محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرماد والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً". [2]

وفي مجيء لفظة "يشكرون" فعلاً مضارعاً إشارة إلى تجدد حدوث هذا الشكر، وتكرر وقوعه، وهذا هو المتوافق مع تجدد هذا الشكر وكثرته، كما أنه متوافق مع تجدد نزول القرآن الكريم، وتصريف آياته، فما زادهم هذا التصريف إلا إيماناً وشكراً، ولهذا حُذف متعلق الفعل "يشكرون" إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، وفي هذا مزيد مدح لهم، وثناء عليهم، وكانوا أهلا أن تُصرف لهم الآيات، وأن يُشاد بهم، وأن ينتفعوا بها، ويقبلوا عليها.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣٢/١

(٢) المصدر السابق: ١٢١/٢.

المبحث الخامس: علاقة تصريف الآيات بإعجاز القرآن الكريم:

لا يشك أحد في إعجاز القرآن الكريم، وأنه بلغ الغاية في البيان، ومن هنا تحدى الله به العرب أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وقد حكم الله عليهم بالعجز والغلبة في قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]، ولستُ هنا في مقام الحديث عن إعجاز القرآن، فثمة كتب تناولت هذا الموضوع بالدراسة والمناقشة[2]، ولكني أشير في هذا المبحث إلى أن تصريف آيات القرآن وجه من وجوه إعجازه، وسأبين هذا الأمر في هذا المبحث، وسأكشف عن علاقة تصريف آيات بإعجاز القرآن الكريم، فأقول وبالله التوفيق: ثمة عدة أمور تؤكد أن تصريف آيات القرآن الكريم بالطريقة التي تزل بها القرآن، وذكر فيها موضوعاته ومعانيه أن ذلك معجز، وأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن التي لا تُحدُّ ولا تُعد، فمن ذلك ما يأتي:

أولاً: الإشارة المتقدمة من أبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٢٩٦) في كتابه " النكت في إعجاز القرآن"، فقد تحدث في مقدمة كتابه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وذكر أنها تظهر في سبع جهات، وذكر منها البلاغة[3]، ثم بعد ذلك فصل القول في الحديث عن البلاغة، وذكر أنها " على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[4]، إذن فالبلاغة عنده في عشرة أقسام، والتصريف منها في المنزلة السابعة، متقدماً على التضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

---

(١) البقرة: ٢٤ .

(٢) ومن هذه الكتب على سبيل المثال: النكت في إعجاز القرآن للرماني، و: بيان إعجاز القرآن، للخطابي، والرسالة الشافية لعبدالقاهر الجرجاني، وكتاب: إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، وكتاب: الإعجاز البلاغي، للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، وغيرها.

(٣) يُنظر: النكت في إعجاز القرآن : ٧٥ .

(٤) المصدر السابق: ٧٦ .

وحسبك في هذا إشارة إلى أهمية هذا التصريف، وأنه قسم من أقسام البلاغة التي صار القرآن الكريم بها معجزاً، ثم بيّن معنى التصريف، وذكر أنه " بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره، وتدل عليه"[1]، ثم ختم الحديث عن التصريف مبيناً أن الله – سبحانه وتعالى – هو " الذي يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن، فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة".[2]

ولا يخفى علاقة هذا التصريف بالإعجاز، كما لا يخفى – كذلك – أثر الرماني وجهده في هذا الموضوع، فقد سعى إلى إبراز التصريف، وبيان أثره، وشديد علاقته بالإعجاز، فقد " دلل الرماني بهذا اللون أيضاً على بلوغ القرآن غاية البلاغة".[3]

ثانياً: وثمة عالم آخر أشار إلى هذا الأمر، وذكر أن التصريف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم، التي صار بها معجزاً، ذلكم هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣)، وقد ذكر هذا الأمر في كتابه " إعجاز القرآن"، وفي ذكر هذا الأمر في هذا الكتاب إشارة واضحة أن تصريف الآيات ضرب من إعجاز القرآن الكريم، وهي من الإشارات المتقدمة – كذلك – في هذا الباب، وحسبك بهذا دليلاً على مكانة هذا التصريف، وعلو قدره في البيان، وفي بلاغة القرآن، مما قصر البشر عن بلوغه، والإتيان بمثله، وقد ذكر هذا الأمر تحت مبحث: " في وصف وجوه من البلاغة".[4]

ثالثاً: ومن الأمور الدالة – كذلك – على أن تصريف آيات القرآن وجه من وجوه إعجازه، وأنه بالغ في ذلك حد الكمال، مما عجز البشر عن بلوغه والإتيان بمثله: آية من

---

(١) المصدر السابق: ١٠١.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ١٠٢.

(٣) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٨.

(٤) إعجاز القرآن الكريم: ٢٦٢، لأبي بكر الباقلاني، وإن كان جهد الباقلاني في هذا الكتاب قليلاً، بل هو نقل عما جاء في كتاب الرماني، ولكن حسبه أنه أشار إليه وذكره في كتابه الذي يتحدث فيه عن إعجاز القرآن، كما يدل على ذلك عنوانه.

آيات التصريف، فقد تضمنت الإشارة إلى هذا الأمر تلميحاً لا تصريحاً، وتلك الآية هي قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وأقصد في ذلك قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾، وقد سبقت الإشارة إلى معناها، وبيان المراد بها[1]، وفي هذا القول من المشركين إشارة من طرف خفي إلى بلاغة هذا التصريف، وأنه بلغ حداً من البيان، يتعذر معه الإتيان بمثله، وفي هذا اعتراف منهم – شعروا أو لم يشعروا – بهذه الحقيقة، فقد أدركوا أنهم لا قِبل لهم بهذا البيان، وأنه فوق طاقتهم البيانية، ولكن كفرهم حال دون الإقرار بأن هذا القرآن منزل من عند الله، فما وجدوا عذراً ولا حجة إلا أن يقولوا لرسول اللهﷺ في رد هذا القرآن وتكذيبه " درست".

وقد أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى، يقول البقاعي في تفسير هذه الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]: " "وكذلك" أي ومثل هذا التصريف العظيم "نصرف" أي ننقل جميع الآيات من حال إلى حال في المعاني المتنوعة، سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوي، ويعجز القدُّر، "وليقولوا" اعتداء لا عن ظهور عجزهم "درست" أي غيرك من أهل الكتاب، أو من غيرهم في هذا حتى انتظم لك هذا الانتظام، وتم لك هذا التمام، فيأتون ببهتان بيّن عواره، ظاهر أسراره، مهتوك أستاره، فيكونوا كأنهم قالوا: إنك أتيت به عن علم، ونحن جاهلون لا نعلم شيئاً ".[2]

ومن الإشارات إلى هذا الأمر – كذلك – ما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسير قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥] فذكر أن معنى الآية: " أي نصرف الآيات مثل هذا التصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدراسة والتعلم، فيقولوا: درست، والمعنى: أنا نصرف الآيات، ونبينها تبييناً من شأنه أن يصدر من العالم الذي درس العلم، فيقول المشركون: درست هذا، وتلقيته من العلماء

---

(١) يُنظر: صفحة: ٣٩. من هذا البحث.

(٢) نظم الدرر: ٧/ ٢٢٤ .

والكتب، لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصل إلى صدور مثل هذا التبيين من رجل يعلمونه أمياً لا يكون إلا من قِبل وحي الله إليه".[1]

وقد ذكر هذا المعنى، وألمح إليه سيد قطب كذلك، فذكر أن في هذا القول ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأنه بهذا التصريف بالغ حد البيان المعجز الذي يتعذر على البشر الإيتان بمثله، يقول: "إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذي لا عهد للعرب به؛ لأنه ليس نابعاً من بيئتهم، كما أنه ليس نابعاً من البيئة البشرية على العموم".[2]

ومن الإشارات المهمة في بيان علاقة التصريف بالإعجاز ماذكره الدكتور عبدالعظيم المطعني، فقد تحدث عن هذا الأسلوب، وأشار إليه بطريقة السؤال والجواب، فأشار إلى تصريف الآيات بقوله: "لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكي عنه واحد؟ والجواب:

أولاً: أن الاختلاف راجع في الأغلب إلى اختلاف الأحوال، ففي كل عبارة جاءت على منهج معين؛ رعاية ومناسبة لمقام الحديث، ويتصل بهذا المظهر من مظاهر التحدي، حيث يكون المعنى الأصل واحداً، ويحدث بتكراره زيادات ومعان ثانية لم يزدد بها إلا حلاوة وطلاوة، على خلاف المعهود في بلاغة الناس، فإن التكرار فيه يعرضه للقوة والضعف والتهافت، وإن وُفق في موضع خُذل وسقط في موضع آخر

ثانياً: الفروق اللفظية التي يجيء عليها التكرار، عندما نبحث عن أسرارها يتجلى لنا بوضوح لماذا آثر القرآن لفظاً على لفظ، وأسلوباً على أسلوب مما يؤدي في النهاية إلى الإقرار اليقيني بإعجاز القرآن".[3]

رابعاً: وله علاقة وثيقة بما قبله: وهو مجيء آية من آيات التصريف القرآن عقب آية التحدي بالأمر بالإتيان بمثل القرآن، وذلك في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن

(١) التحرير والتنوير: ٤٢٢/٧

(٢) سيد قطب: ١١٦٨/٢.

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٣٦٥/١.

﴿ يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾، وحسبك في هذا دلالة واضحة، وإشارة بينة إلى علاقة هذا التصريف بإعجاز القرآن الكريم، فهو وجه من وجوه الإعجاز، وبه صار معجزاً، وبسببه تعذر على البشر جميعاً الإتيان بمثله، ومن هنا بلغ هذا التصريف هذا الإعجاز، وكان آية في البلاغة والبيان.

وقد أشار الطاهر بن عاشور في تفسيره إلى ارتباط آية التصريف بآية الإعجاز، يقول: "لما تحدى الله بلغاء المشركين بالإعجاز، تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجاً في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل، وذُكرتْ هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهو ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال، ويجوز أن يراد بالمثل الحال أي من كل حال أحسن المعاني يجدر أن تتمثل به، ويشبه ما يراد بيانه من نوعه، فجملة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ مشاركة لها في حكمها المتقدم بيانه، زيادة في الامتنان والتعجيز".[1]

ولذا فإن تصريف الآيات، ومجيئها بهذه الصورة البديعة المعجزة سبب إلى الإيمان به، والإقبال عليه، وأما الكافرون فما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، ولذا جاءت الإشارة إلى موقفهم من إعجاز القرآن الكريم، ومن تصريف آياته في هذا الموضع بقوله ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

خامساً: ورود مقولات عن المفسرين تؤكد على أن التصريف من وجوه إعجاز القرآن الكريم:

وردت كثير من المقولات لبعض المفسرين ذكروها في ثنايا تفسيرهم لآيات التصريف، تضمنت الإشارة الصريحة إلى أن هذا التصريف وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وأنه بالغ حد البيان المعجز، ومن الإشارات المتقدمة في ذلك قول البقاعي في

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥/٢٠٤.

تفسير قوله – تعالى – ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] يقول: " أي نوحيها لهم ولغيرهم في كل وجه من وجوه البيان بالغ في الإحسان ما يأخذ بالعقول، ويدهش الألباب، ويكون كافياً في الإيصال إلى المطلوب".[١]

ويشير في موضع آخر إلى الإعجاز المتضمن في تصريف آيات القرآن الكريم في موضع آخر من مواضع آيات التصريف، وذلك في تفسير قوله ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]: يقول " "وكذلك" أي ومثل هذا التصريف العظيم "نصرف" أي ننقل جميع الآيات من حال إلى حال في المعاني المتنوعة، سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوي، ويعجز القدُّر"[٢]، وفي هذا النص إشارة واضحة إلى الإعجاز، بل تصريح به في قوله "ما يفوت القوي، ويعجز القدُّر" دلالة على أن التصريف معجز تحداهم الله به، وتعذر عليهم الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وقد أشار السعدي في تفسير هذه الآية إلى الإعجاز الذي تضمنه تصريف هذه الآيات، يقول: " والمراد أن الله – تعالى – ينوع الآيات الدالة على المعاني الرائعة، الكاشفة عن الحقائق الغامضة، لا تصريفاً أدنى منه، بل تصريفاً بلغ في الروعة مبلغاً ارتقى عن إدراك المخلوقين"[٣]، إذن فقد بلغ هذا التصريف مبلغاً عظيماً في البلاغة والبيان، ارتقى عن إدراك المخلوقين عن بلوغه والإتيان بمثله، وأنى لهم ذلك وهو ضرب من إعجاز القرآن الكريم، لم يأتوا ولن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ويقرر هذا الحقيقة ويؤكدها البقاعي، مبيناً أن هذا التصريف جاء " على هذا المنهاج الغريب، والمنوال العجيب المذكر بالنعم في أسلوب دال على التفرد، وتمام القدرة"[٤]، ويشير إلى هذه القضية مرة أخرى، وفي آية أخرى من آيات التصريف يقول – في قوله ﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٥] يقول: " أي ومثل هذا التصريف،

---

(١) نظم الدرر: ١١٨/٧.
(٢) المصدر السابق: ٢٢٤/٧ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٥٥/٢ .
(٤) نظم الدرر: ٢٢٤/٧ .

وهو الترديد مع اختلاف الأنحاء لا اختلاف الدلالات، وإبرازها في قوالب الألفاظ الفائقة، والمعاني الرائقة، في النظوم المعجزة على وجوه لا تكاد تدخل تحت الحصر".[1]

وقد تضمن كلامه إشارات مهمة متعلقة بإعجاز القرآن الكريم، وذلك في قوله "وإبرازها في قوالب الألفاظ الفائقة، والمعاني الرائقة، في النظوم المعجزة"، وذلك أن هذه الأمور الثلاثة هي أركان البلاغة وأساسها، يدل على ذلك قول أبي سليمان الخطابي – وهو يناقش قضايا إعجاز القرآن الكريم، ويذكر وجوه إعجازه–، يقول: " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملتَ القرآن وجدتَ هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تلاؤماً وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني "[2]، ثم ختم هذه الحقيقة مبيناً " أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله".[3]

ومن الإشارات المهمة في أقوال المفسرين في الدلالة على أن تصريف آيات القرآن بلغ حد الإعجاز: قول أبي السعود يقول في تفسير قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩] : " يقول " ولقد صرفنا" أي: كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم " من كل مثل" أي من كل نوع من أنواع

(١) نظم الدرر: ٧/ ٢٢٤.

(٢) بيان إعجاز القرآن: ٢٧.

(٣) المصدر السابق: ٢٨.

المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل؛ ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا"[1]

وقد تضمنت هذه المقولة الإشارة إلى نظم القرآن، الذي صار به معجزاً، ومعلوم أن إعجاز القرآن في نظمه، يدل على أهمية هذا النظم، وعلو قدره قول عبدالقاهر الجرجاني: "وقد علمتَ إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه مابلغ، وبتهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال، وما كان بهذا المحل من الشرف، وفي هذه المنزلة من الفضل، وموضوعاً هذا الموضع من المزية، وبالغاً هذا المبلغ من الفضيلة كان حرىً بأن تُوقظ له الهمم، وتُوكَّل به النفوس، وتُحرَّك له الأفكار، وتُستخدم له الخواطر".[2]

وقد تضمن كلام أبي السعود السابق الإشارة إلى المعاني البديعة التي جاء بها القرآن الكريم من خلال تصريف آياته، وأنها آية في الحسن، وأن حقها الإيمان بها، والإقبال عليها؛ لِما اشتملت عليه من البلاغة والبيان بلغتْ به حد الإعجاز.

ومن المقولات – أخيراً – التي تدل على أن في هذا التصريف إعجازاً، قول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٥] يقول: "كذلك نصرف الآيات أي تفنن الاستدلال بالدلائل على عظيم القدرة المقتضية الواحدانية، فذلك تصريف أي تنويع وتفنن للآيات في الدلائل".[3]

وقد تضمن كلامه الإشارة إلى أن هذا التصريف جاء بألفاظ بديعة، ومعانٍ طريفة، وتصرف بالقول، وتفنن صادر من حكيم عليم، وقد دل هذا التصريف على عظيم قدرته التي تحدى بها البشر جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزوا، وكان الأولى أن يقودهم هذا التصريف إلى النظر والإيمان، والاستدلال به أنهم لا طاقة لهم بمثله فيؤمنوا لا أن يكفروا ويعارضوا.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٢٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ٨٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٨/ ١١١٦.

المبحث السادس: بلاغة تصريف آيات القرآن الكريم في كتب البلاغيين:

هذا التصريف الذي عرفنا تعريفه، والمراد به، كما عرفنا آياته في القرآن الكريم، وحِكمه التي جاء لتحقيقها، وموقف الناس من هذا التصريف: المؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، وقد اتضحت – كذلك – علاقة هذا التصريف بإعجاز القرآن الكريم، وأنه وجه من وجوه إعجازه، بعد هذا كله ما نصيب هذا التصريف في كتب البلاغيين ودراساتهم؟ وما مدى حديثهم عنهم؟ وإشارتهم إليه؟ هذا ما سأكشفه في هذا المبحث، وأتحدث عنه وأبينه، فأقول: من العجيب والمؤسف في الوقت نفسه أن هذا التصريف وقد عرفنا أهميته وبلاغته لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه في الدراسات البلاغية، ولم ينل العناية الكافية التي تليق به بالدراسة والإشارة في كتب المتقدمين، مع أن للرماني جهوداً وإشارات متقدمة سابقة في هذا الموضوع، كان الأولى على من جاء بعده أن يكمل المسيرة، وأن يضيف عليه اللبنات تلو اللبنات، وأن يتناوله تنظيراً وتطبيقاً، ولذا فمن الحق والإنصاف أن أشير في هذا المقام إلى جهد الرماني في هذا الموضوع، يُعدُّ الرماني (ت ٢٩٦) أول من تحدث عن التصريف، " ولم نرَ أحداً قبل الرماني تحدث عن هذا اللون"[١]، فذكر أن البلاغة على عشرة أقسام، يقول: " والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ونحن نفسرها باباً باباً إن شاء الله – تعالى –"[٢]، وصدق في ذلك فقد فسر هذه الأقسام وتناولها بالبيان والتفصيل، فبين المراد بالتصريف، وذكر أنه " تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها على جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة".[٣]

---

(١) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٩.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ٧٦.

(٣) المصدر السابق: ١٠١.

وهي إشارة متقدمة منه، وصائبة في بيان " أن التصريف في الوجوه البلاغية لا يقف عند ذكر ميزانه الصرفي، كما يحدث عند النحويين في تصاريفهم، بل يتجاوز ذلك إلى ربط الصيغ بالمعاني".[١]

كما أشار إلى أهمية هذا التصريف وبلاغته، مبيناً أنه " بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره، وتدل عليه"[٢]،مبيناً مجيء هذا التصريف في القرآن كثيراً، مشيراً إلى أن " تصريف المعنى في الدلالات المختلفة جاء في القرآن في غير قصة"[٣]، ثم ذكر بعد ذلك حِكم هذا التصريف، فذكر أن " التصرف في البلاغة من غير نقصان في أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة"[٤]، ثم ختم الحديث عن التصريف ببيان علاقته بإعجاز القرآن الكريم، فذكر أن الله – سبحانه وتعالى – وحده " الذي يقدر على أن يأتي بما شاء من مثل القرآن، فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة ".[٥]

أقول كان الأولى على من جاء بعد الرماني أن يكمل المسيرة، وأن يبدأ من حيث انتهى إليه الرماني، شأنه في ذلك شأن كثير من الأساليب البلاغية التي تعاقب عليها العلماء بالدراسة والبيان، والإضافة والتمحيص والتعليق، ولكن هذا لم يحدث، " وقليل ممن جاءوا بعده تحدثوا عنه بشيء من الإيجاز"[٦]، وينطبق هذا على أبي بكر محمد الباقلاني، فقد ذكر التصريف، وأشار إليه إشارة مختصرة، تحت مبحث " في وصف وجوه من البلاغة" [٧]، ولكنه اكتفى بنقل ما ذكره الرماني، دون الإشارة حتى إلى اسمه، مكتفياً بالقول: " ذكر بعض أهل الأدب والبلاغة"[٨]، ونقل بعض ما ذكره الرماني مختصراً.[٩]

---

(١) في إعجاز القرآن الكريم:: ٨١ .
(٢) النكت في إعجاز القرآن: ١٠١.
(٣) النكت في إعجاز القرآن: ١٠١.
(٤) المصدر السابق: ١٠٢.
(٥) المصدر السابق: ١٠٢.
(٦) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٩.
(٧) يُنظر: إعجاز القرآن: ٢٦٢.
(٨) المصدر السابق: ٢٧٢.
(٩) المصدر السابق: ٢٧٢.

هذا فقط ما وقفتُ عليه مما ذكره المتقدمون عن التصريف، وقد أشار إلى هذا الحقيقة أحد الباحثين في إعجاز القرآن الكريم، في معرض حديثه عن جهود الرماني في إعجاز القرآن الكريم، فقال – بعد أن بين جهود الرماني في هذا المجال –: "ولم نرَ أحداً قبل الرماني تحدث عن هذا اللون، وقليل ممن جاءوا بعده تحدثوا عنه بشيء من الإيجاز الشديد كالباقلاني، الذي أوجز ما قاله الرماني".[1]

ولم أجد – في حدود علمي واطلاعي – غير هذين العلمين اللذين أشارا إلى بلاغة التصريف في القرآن الكريم وإعجازه، ومن خلال قراءتي في كتب البلاغة لم أجد من أشار إلى هذا الأمر، سوى أبي الإصبع المصري (٦٥٤هـ) فقد ذكر باباً بعنوان "باب التصريف"، ولقلة الحديث عن هذا الموضوع فقد ذكر الدكتور أحمد مطلوب أن هذا التصريف من مبتدعات أبي الإصبع المصري [2]، ولستُ مع الدكتور أحمد مطلوب في ذلك جملة وتفصيلاً، فقد سبق الحديث عن جهد الرماني في هذا الباب، واستفاضته في هذا الموضوع، وإحاطته به من جميع جوانبه، وبأكثر موضوعاته، وإنْ كان ثمة من عذر للدكتور أحمد مطلوب فهو بسبب قلة الدراسات البلاغية لهذا الأسلوب، وندرة ورود هذا المصطلح في الدراسات البلاغية.

كما ذكر محقق كتاب "تحرير التحبير" أن هذا الموضوع – يعني التصريف – من الأنواع التي سلمت للمؤلف، يعني ابن أبي الإصبع، وما أدري ماذا يقصد بذلك، فإن كان مراده أنه أول من تحدث عن هذا الموضوع، فليس الأمر كما ذكر، وقد سبق بيان هذه القضية، وأحقية الرماني بقصب السبق في هذا الموضوع.

وقد عرَّف ابن أبي الإصبع التصريف بقوله: "وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى فيبرزه في عدة صور، تارة بلفظ الاستعارة، وطوراً بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحيناً بلفظ الحقيقة"[3]، ثم استشهد للتصريف بحديث امرئ القيس عن الليل، مشيداً ببلاغته في

(١) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٩.

(٢) يُنظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣٦٠ .

(٣) تحرير التحبير: ٥٨٢ .

تصرفه، وتصريفه القول في الحديث عن الليل، يقول: " وهذا كقول امرئ القيس يصف الليل [1]:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلتُ له لما تمطى بجوزه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فإنه أبرز هذا المعنى في لفظ الاستعارة، ثم تصرف فيه فأتى به بلفظ الإيجاز، فقال:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فإن التقدير: فيالك من ليل طويل، فحذف الصفة، لدلالة التشبيه عليها، ثم تصرف فيه فأخرجه بلفظ الإرداف، فقال:

كأن الثريا عُلقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

ثم تصرف فيه فعبر عنه بلفظ الحقيقة، فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح وما الإصباح فيك بأمثل " [2]

ولم يقف جهد ابن أبي الإصبع عند هذه الإشارة، فقد ذكر هذا الموضوع في كتابه الآخر " بديع القرآن"، فقد ذكره تحت عنوان " باب الاقتدار"، وعرَّفه بقوله " وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور؛ اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض، فتارة يأتي به في لفظ الاستعارة، وطوراً يبرزه في صورة الإرداف، وآونة يخرجه مخرج الإيجاز، وحيناً يأتي به في ألفاظ الحقيقة" [3]، ثم استشهد لذلك – أيضاً – بحديث امرئ القيس عن الليل، وتصريفه القول في الإبانة عنه، بطرق مختلفة. [4]

وعند النظر في التعريفين اللذين ذكرهما ابن أبي الإصبع نجد أن هذين التعريفين ينطبقان تماماً على معنى التصريف الذي تم الحديث عنه في القرآن الكريم، فقد ذكر في

---

(١) يُنظر: ديوانه: ١٨.

(٢) تحرير التحبير: ٥٨٢.

(٣) بديع القرآن: ٢٨٩.

(٤) المصدر السابق: ٢٨٩.

التعريف الأول أن الشاعر يتصرف في المعنى، ويتفنن فيه، فيعرضه في عدة صور بين الحقيقة والمجاز بأنواعه.

وفي الإشارة إلى هذا الموضوع تحت عنوان " الاقتدار" في كتابه الآخر إشارة مهمة في تصريف المعاني، فلا ريب أن من تمكَّن من المعاني، وصرفها كما يشاء، ونوَّع في الحديث عنها أن ذلك دلالة على اقتداره على المعاني، وتملكه إياها، فقد اقتدر عليها، وتصرَّف فيها، وصرَّفها كما يشاء، ولذا فإن إبراز المعنى الواحد في صور متعددة لاشك أن ذلك اقتدار منه، وتحكم في المعاني، فقد لانت له وانقادت، فقاد أزمتها، وامتطى صهوتها، وقد أشار عن هذه القدرة والملكة والتمكن من هذه المعاني من خلال العنوان الذي جعله عنواناً لهذا الموضوع، وهو " الاقتدار"، بل قد صرَّح بهذا في قوله: " ولا شبهة في أن هذا إنما يأتي من قوة الشاعر، وقدرته على التلاعب بالكلام" .[1]

وقد أشار ابن أبي الإصبع إشارة مهمة إلى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه في هذا المجال، يقول: " وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن العزيز، فإنك ترى القصة الواحدة التي لا تختلف معانيها كيف تأتي في صور مختلفة، وقوالب من الألفاظ متعددة، حتى لا تكاد تشتبه في موضعين منه، ولا بد أن تجد الفرق بين صورها ظاهرا" [2]، وأشار إلى هذه الحقيقة – كذلك – في كتابه الآخر، يقول: " ولذلك أتت قصص القرآن الكريم في صور شتى من البلاغة، مابين الإيجاز والإطناب، واختلاف معاني الألفاظ، وشهرة ذلك تغني عن شرحه" .[3]

وأقول: ليتك شرحتَ ذلك، واستشهدت له من القرآن الكريم، وليتك زدتَ في حديثك عن هذا الموضوع في القرآن الكريم تنظيراً وتطبيقاً .

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق: ٢٩٠ .

(٣) تحرير التحبير: ٥٨٣ .

يكاد يكون هذا قصارى ما نجده في كتب البلاغة القديمة في الحديث عن تصريف الآيات في القرآن الكريم، وقد سارت الدراسات الحديثة على خطا الدراسات البلاغية فلا تكاد تجد لهذا المصطلح حضورا في كتبهم، ولا في دراساتهم تنظيرا له ولا تطبيقاً.

وهناك من ذكر هذا الأمر، ولفت الأنظار إليه، بل عده خاصية من خصائص أسلوب القرآن الكريم التي صار بها معجزاً، ذلكم هو الأستاذ الشيخ محمد عبدالعظيم الرزقاني في كتابه "مناهل العرفان في علوم القرآن" فقد تحدث فيه عن أسلوب القرآن الكريم، وذكر "أن أسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها".[1]

ثم ذكر أن "الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن، والمزايا التي توافرت فيه، حتى جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دميت أقدامهم، وحفيت أقلامهم، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قُلاًّ من كثر، وقطرة من بحر، معترفين بأنهم لم يزيدوا على أن قرَّبوا لنا البعيد بضرب من التمثيل؛ رجاء الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني، وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب، وإذن فلنذكر نحن بدورنا شيئاً من خصائص أسلوب القرآن على وجه التمثيل والتقريب أيضاً، وما لا يُدرك كله لا يترك أقله".[2]

فذكر جملة من خصائص القرآن الأسلوبية، وكان مما ذكر – وهو ما يعنينا في هذه الدراسة –: "براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام"، وبيَّن أن المراد بها

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٣٢٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٣١.

أنه " يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء".[1]

يقول – بعد أن ذكر جملة من أمثلة تصريف المعاني في القرآن الكريم التي أراد منها التدليل والتوضيح، لا الاستيعاب والاستقراء –: " وهكذا تجد القرآن يفتنّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة، وخطاب ومضيّ، وحضور واستقبال، واسمية وفعلية، واستفهام وامتنان، ووصف، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك، ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط كثيراً ما تجده سريعاً لا يجارى في سرعته، ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مكباً على وجهه، مضطرباً أو متعثراً، بل هو محتفظ دائماً بمكانته العليا من البلاغة".[2]

ثم بين أثر هذا التفنن في القول، والتصريف فيه على الأسلوب والمخاطب، يقول: " ولقد خلع هذا التصرف والافتنان لباساً فضفاضاً من الجدة و الروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يملَّ قارئه، ولا يسأم سامعه مهما كثرت القراءة والسماع، بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غناء من فنن إلى فنن، ومن زهرة إلى زهرة".[3]

وممن أشار إلى تصريف المعاني في القرآن الكريم الدكتور بدوي طبانة في " معجم البلاغة العربية"، فقد ذكر ذلك في مصطلحي " التصرف، والتصريف" بيد أنه في مصطلح " التصرف" نقل نقلاً كاملاً عن ابن أبي الإصبع دون الإشارة إليه، ولم يزد عليه، وكذلك فعل في مصطلح " التصريف" فقد نقل فيه عن الرماني، مع الإشارة إليه بشيء من التصرف، دون أن يزيد عليه[4]، ولكن يحسب له إشارته إلى هذا المصطلح، ولفت الأنظار إليه.

---

(١) مناهل العرفان: ٢/٣٤١.

(٢) المصدر السابق: ٢/٣٤٤.

(٣) المصدر السابق: ٢/٣٤٥.

(٤) يُنظر: معجم البلاغة العربية: ٣٤١.

ومن باب الإنصاف فإن هناك دراسات أفادت من التصريف، وانطلقت منه، ودرست الآيات التي تم تصريف القول فيها، سواء كان ذلك على مستوى الآيات أو الموضوعات، فأما على مستوى الآيات فُدرستْ آيات التشابه في القرآن الكريم، ولعل من أبرزها: كتاب " درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز"، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الإسكافي (٤٢٠هـ)، وفي تسمية الكتاب إشارة واضحة بالمراد من هذا الكتاب، وقد أشار إلى شيء من ذلك في المقدمة، يقول: " إني مذ خصني الله بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودرايته، تدعوني دواعٍ قوية يبعثها نظر وروية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة؛ تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها، فعزمتُ عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت على أسرارها معاني المتأولين المحققين المتبحرين، فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف ولم يقرع بابها، ولم يفتر لهم عن نابها، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار المبهم المتشابه، وتكرار المتكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً، وسميته " درة التنزيل وغرة التأويل"، وليس لله بمنكر مستبدع أن يعثر خاطر عبد ربئ على كنز حكمة في القرآن خبئ، أو يبلغه في لطيف من لطائف كلامه حداً، لا يبلغه أحد وإن كان أوحداً" .[1]

ومن الكتب –كذلك –: " البرهان في توجيه متشابه القرآن"، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (٥٠٥هـ)، والكتاب كسابقه، وقد ذكر في مقدمته أنه يذكر في هذا الكتاب " الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن، وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين، أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة من إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، والإبدال، وما

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: ٣ .

الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها، أو لا، ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها، فإني بحمد الله قد بينتُ ذلك كله بشرائطه في كتاب "لباب التفسير وعجائب التأويل"، مشتملاً على أكثر ما نحن بصدده، ولكني أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه، فإن الأئمة رحمهم الله قد شرعوا في تصنيفه، واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها و عللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه".[1]

ومن الكتب -كذلك -: "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل" لأحمد بن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)، وليس الغرض من ذكر هذه الكتب الحصر ولا الاستقصاء، ولكن أدرت من ذلك: التدليل والتمثيل على هذا النوع من المؤلفات.

وهذه المؤلفات مع أهميتها وجليل نفعها، إلا أن فيها شيئا من النقص والقصور؛ وذلك أنها تنطلق في دراستها من الآية والآيتين اللتين وقع فيهما التشابه دون الالتفات إلى سياق كل آية، واختلاف مقام كل آية عن الأخرى، ودون الإشارة إلى موضوع كل آية، ودون ضم النظير إلى نظيره؛ للوقوف على المعاني التي تم تصريفها، والتنوع في بيانها، والتفنن في ذكرها في تناول هذا الموضوع المتحدث عنه. وينسحب هذا الحكم على نوع آخر من هذه الدراسات قريب منها، وهو دراسة التشابه اللفظي في القرآن الكريم، ومع ما تضمنته هذا النوع من الدراسات من الفائدة والجدة، إلا أنها ضيقت دائرة الدراسة، وحصرت التشابه وأوجه الاختلاف في الألفاظ، مع أن تغير الألفاظ وتشابها بناء على تغير المقامات، واختلافها، وارتباط كل لفظة بالغرض الذي جاءت لتحقيقه، وبالمعنى الذي جاءت الآية لبيانه وإيضاحه، وإلا فإن دائرة الدراسة أوسع وأشمل، وما الألفاظ إلا جزء من

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١٩.

هـذا التـصريف، ومـن الدراسـات القيمـة فـي هـذا الموضـوع: رسـالة دكتـوراه بعنـوان: " المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية"[1]، وكتاب آخر بعنوان: " من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم"[2]، وهاتان الدراستان – كما يتضح من عنوانهما – تعنيان بالجانب البلاغي في موضوع التشابه اللفظي، وثمة دراسة قيمة في هذا الجانب ولكنها تعنى بالجانب الموضوعي في التشابه اللفظي، وهي رسالة ماجستير، بعنوان: " المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه: دراسة موضوعية"[3].

وثمة دراسات درست هذا التصريف على مستوى الموضوعات دراسة موضوعية بلاغية، وإنْ لم تصرح بالتصريف، وهي دراسات نافعة، كما أن فيها عمقاً، واستيعاباً للموضوع المتحدث عنه من جميع جوانبه، وحصرا لكل الآيات التي تحدثت عنه، ومن تلك الدراسات على سبيل المثال لا الحصر:

كتاب: " متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام" للدكتور عبدالجواد محمد طبق، وذكر أنه تم التنوع والتعدد في الحديث عن قصة آدم – عليه السلام –، وبيانها لدرجة أنه " اشتد التشابه أو دق أحياناً بين بعض العبارات في مواضع القصة لدرجة يصعب معها استكناه سر هذه التشابه، وهذا أمر طبعي في تناول مثل هذه المسائل في القرآن الكريم، لأنه ما دام فوق طاقة البشر في محاكاته فهو فوق طاقتهم – أيضاً – في فض جميع مغاليقه وأسراره، ولكن هذه لا يثنينا عن المحاولة إذا ما أوتينا وسائلها؛ لأننا إن عجزنا أحياناً عن كشف بعض أسرار المتشابه فلن نعجز عن المحاولات الجادة التي يمكن أن تصيب في أحيان أخرى؛ لأننا مأمورون بالتدبر في أسراره، والتفطن لخواص تراكيبه، ومحاولة كشف أستاره ".[4]

---

(١) للدكتور صالح بن عبدالله الشتري، مقدمة لقسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ .

(٢) للأستاذ الدكتور محمد بن علي الصامل، وقد صدرت طبعته الأولى عن دار إشبيليا، عام ١٤٢٢هـ .

(٣) للباحث محمد بن راشد البركة، وقد تقدم بها إلى قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عام ١٤٢٥هـ.

(٤) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام: ٢ .

ومن الدراسات – كذلك –: كتاب: "خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام" للدكتور الشحات محمد أبو ستيت، وقد ذكر طبيعة عمله، وطريقة تناوله لهذه القصة، يقول: "وأتبعتُ كل فصل من الفصول الأربعة السابقة ببحث خاص يبين أسرار التشابه، والتنوع في نظم الحلقات التي ينتظمها الفصل، وذلك من خلال المقارنة المفصلة بين نظمها مجتمعة، على أننا في تحليلنا البلاغي لكل حلقة على انفرادها قد عنينا عناية خاصة ببيان أسرار التنوع في نظمها، وإيضاح ما فيه من تلوين أسلوبي بديع، وإظهار كثير من لطائف ترتيبه، ونسقه الفريد".[1]

ومن الدراسات – أخيراً –: "من أسرار تنوع النظم القرآني في قصة زكريا عليه السلام"، للدكتور أحمد السيد طلحة داود، وقد أشار إلى إعجاز القرآن الكريم في هذا المجال، يقول: "فإن من أوضح وأبرز مظاهر هذا التنوع والتشابه في الذكر الحكيم ما نراه في القصص القرآني، حيث يعرض القصة الواحدة في أنماط متعددة من النظم، وتنوع هذا العرض بالإطناب والإيجاز، وبالتقديم والتأخير، إنما هو تلاؤم مع مقتضيات السياق، والغرض المقصود".[2]

كما بيّن الهدف الذي يسعى إليه من خلال هذه الدراسة، وذلك في قوله "وهذا البحث يرمي بالدرجة الأولى إلى استجلاء الأسرار البيانية التي تكمن وراء تنوع النظم في هذه القصة، معتمداً في بيان هذه الأسرار على فقه حركة السياق، وفهم الغرض المقصود الذي شكل صياغتها وترتيبها".[3]

وهذه الدراسات وما شاكلها هي الأقرب – في نظري – من النوع الأول في بيان معنى تصريف المعاني في القرآن الكريم، كما أنها تُعد النموذج التطبيقي لتصريف المعاني في القرآن الكريم، وإنْ كان تصريف الآيات والمعاني لا يقتصر على قصص

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام: ٥.
(٢) من أسرار تنوع النظم القرآني في قصة زكريا عليه السلام: ٢.
(٣) المصدر السابق: ٣.

الأنبياء، ولكنه يتجلى في هذه القصص، وإلا فإنه كامن في المعاني كلها التي يذكرها القرآن الكريم، وينوع في ذكرها ويتفنن في عرضها من المعاني التي يبدئ فيها ويعيد.

كما أني أفضل أن ينص في مثل هذه الموضوعات صراحة على التصريف؛ فإنها لفظة قرآنية، تكررت في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما أن هذا التصريف منهج قرآني كذلك، اتخذه القرآن وسيلة في بيان معانيه وذكرها، وبسط القول فيها، وتنوع في عرضها.

* * *

المبحث السابع: وقفة مع تصريف المعاني في آيات التصريف في القرآن الكريم

في هذا المبحث سأنظر في آيات التصريف نظرة تأمل وتدبر، للوقوف عند بلاغة القرآن الكريم في ذكره لهذا المعنى، وتصريفه القول وتنوعه في ذكره لآيات التصريف في القرآن، وسأنطلق في هذا الأمر من الآيات نفسها، ولذا يحسن في هذا المقام ذكر هذه الآيات مرة أخرى مجتمعة في هذا الموضع، لتأملها، والغوص في دلالاتها، وإمعان النظر فيها، وذكر شيء من أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية وهذه الآيات هي:

الآية الأولى: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

الآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

الآية الثالثة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]

الآية الرابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

الآية الخامسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]

الآية السادسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: ٨٩]

الآية السابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

الآية الثامنة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]

الآية التاسعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

الآية العاشرة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]

الوقفة الأولى:

أن جميع هذه الآيات نزلت في العهد المكي[1]، ولذا أخذت هذه الآيات خصائص العهد المكي في خصائصه الموضوعية والأسلوبية، ولهذا الأمر دلالة يحسن الوقوف معها، والإشارة إليها، وهي أن القرآن الكريم يكاد يكون الحديث البارز في العهد المكي، فمن الناحية الموضوعية فيكاد يكون القرآن الكريم من أكثر الموضوعات التي كثر فيه حديث المشركين عنه، وكثر جدالهم فيه، فما أكثر ما تطاول عليه القوم، فقد أطلقوا فيه الافتراءات العظيمة، فهو – كما زعموا – شعر وسحر، كما أنه إفك مفترى، ولذا فمن المناسب – والحالة هذه – أن يكثر الحديث عن القرآن، وأن يبين – سبحانه – حقيقة هذا الكتاب، وأن يذكر خصائصه التي تميز بها، وانفرد عما سواه من الكتب، التي بسببها باين كلام البشر، وصار بها معجزاً، كما أن حال القوم، وماهم عليه من الإعراض والتكذيب ناسب ذكر هذا الأمر في هذا العهد، وتكراره عليهم؛ علهم أن يقبلوا عليه، ويؤمنوا به، كما تجلى ذلك من خلال حكم هذا التصريف التي سبق الإشارة إليها، فلم تقف نعمة الله ومنته بنزول القرآن عليهم، بل أنزله عليهم منجماً، وصرف فيه الآيات والأمثال؛ لعلهم يرجعون، ولعلهم يفقهون، ولعلهم يشكرون، ولكن ما زادهم

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١، الزركشي، و: المكي والمدني في القرآن الكريم:٧١، للأستاذ الدكتور محمد الشايع

هذا التصريف إلا كفوراً، ونفوراً وجدلاً، ولا غرو أن يكون هذا موقفهم؛ لأنه لا ينتفع من تصريف الآيات إلا القوم الذين يعلمون ويشكرون.

كما جاءت آيات تصريف المعاني في القرآن الكريم محملة بكثير من الخصائص الأسلوبية للآيات المكية، وسوف أبسط القول في بيان هذه الخصائص في الوقفات الآتية في بيان ما تميز به أسلوبها، وما انطوت عليه من أسرار بلاغية، ونكت بيانية.

الوقفة الثانية:

جاءت آيات تصريف الآيات في القرآن الكريم على قدر كبير من البلاغة والجزالة في القول، وقد تم توظيف ذلك كله في الدلالة على أهمية هذا التصريف، وعلو قدره وشأنه في البلاغة والإعجاز، و قد تجلى ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: من خلال فعل الأمر " انظر" الذي صُدرت به بعض آيات التصريف، وقد جاء ذلك في موضعين، في قوله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

الآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

ولا يخفى أن في هذا الفعل إشارة إلى أهمية هذا التصريف، و لفت الأنظار إليه، فلعلو قدره، وعظيم أثره وتأثيره جاء هذا الأمر ليدل على هذا المعنى، ويشير إليه، ولذا فإن في هذا الأمر تعجباً من حالهم من عدم انتفاعهم من هذا التصريف، وعدم إقبالهم عليه، فهو " تعجب لرسول الله من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة".[1]

كما أن في هذا التعجب إشارة إلى عِظم هذا التصريف، وعلو قدره، وأن حقه الإيمان به، والإقبال عليه، ولذا فإن في هذا الأمر تعظيماً لهذا التصريف[2]، كما أن في هذا

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٤٣.

(٢) يُنظر: نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

الفعل إشارة إلى عظم هذا التصريف، وعظيم نفعه على الأمة، ولذا جاء الفعل "انظر" ليلفت العقول إلى هذا الفضل، وقد أشار ابن عطية إلى الأمر بقوله: "وهذه الآية تنبيه على فضل الله في القرآن على العالم، وتوبيخ للكفار على قبيح فعلهم".[1]

يدل على ذلك – أيضاً– قول البقاعي: "ولما كان هذا بياناً عظيماً أشار إلى عظمته بقوله "انظر"".[2]

وفي الأمر بالنظر إلى هذا التصريف في قوله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ إشارة إلى عِظم هذا التصريف واشتهاره، فقد صار ماثلاً للعيان يبصره كل ذي عينين، ومن هنا جاء الأمر بالالتفات إليه بقوله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى بلاغة هذا الفعل ودلالاته، يقول "في قوله "انظر" تنزيل للأمر المعقول منزلة المشاهد، وهو تصريف الآيات مع الإعراض عنها، حتى إن الناظر يستطيع أن يراها، وأما الأمر فهو مستعمل في التعجب من حالهم".[3]

ثانياً: مجيء لفظة "نصرف" فعلاً مضارعاً، وفي ذلك إشارة إلى تكرر حدوث هذا التصريف، وتجدد وقوعه، وهذا من رحمة الله بعباده أن كرر عليهم نزول القرآن، وأن صرف لهم الآيات تصريفاً، فلم يكن هذا التصريف مرة ثم انتهى هذا التصريف وانقضى، بل تكرر حدوثه، و تجدد وقوعه بتجدد معاني آيات القرآن الكريم التي تم الحديث عنها، وذكرها في القرآن الكريم بأبلغ أسلوب، وأحسن بيان.

ثالثاً: جاء الحديث عن التصريف في أربعة مواضع بصيغة الجمع في قوله "نصرف"، وفي المواضع الستة الأخرى جاء الفعل فيها مسنداً إلى ضمير الجمع في قوله "صرفنا"، ولا يخفى أن في هذا الجمع تعظيماً له – سبحانه وتعالى – وهو لا يعظم نفسه إلا على أمر

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٨٤.

(٢) نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٣٥.

عظيم، ومن هنا جاء هذا الجمع إشارة إلى هذا المعنى ودلالة عليه، يدل على هذا المعنى ويؤكده قول البقاعي في قوله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ "أي بما لنا من العظمة".[1]

كما أن في قوله "صرفنا" تعظيماً له – سبحانه – وتفخيماً لذاته على تصريفه المعاني والأمثال في هذا القرآن، يدل على ذلك – أيضاً – قول البقاعي في قوله "ولقد صرفنا" "أي رددنا وكررنا تكريراً بما لنا من العظمة".[2]

رابعاً: العطف بـ "ثم" في قوله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] فللعطف بهذا الحرف ارتباط وثيق بتصريف الآيات، فقد تضمن الإشارة إلى بلاغة هذا التصريف، وعظيم أثره، كما تضمن – كذلك – الإشارة إلى موقف المشركين منه، وإعراضهم عنه، وذلك أن في هذا العطف معنى الاستبعاد، استبعاد أن يصدفوا عن هذه الآيات، ويعرضوا عنها بعد تصريفها وتنوعها وتكرار بيانها عليهم مرة بعد أخرى.

وقد أشار كثير من المفسرين إلى هذا المعنى، وأكدوا عليه، يقول أبو السعود – في تفسير هذه الآية –: "" وثم "لاستبعاد صدوفهم أي أعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها".[3]

كما أشار إلى هذا المعنى محي الدين زادة في قوله: "ثم استبعد إعراض المشركين عن التأمل فيها مع هذه المبالغة في تفهيمها وتقريرها وكشفها وإيضاحها، وعجَّب الرسول منه، فقال: "ثم هم"، أي انظر يا محمد كيف هم يصدفون".[4]

وقد تضمن هذا الاستبعاد تعجباً من حالهم، ومن موقفهم من هذا التصريف، يقول ابن عاشور – في الكشف عن دلالة حرف العطف "ثم" –: "وهو هنا للتعجب من قوة الأدلة واستمرار الإعراض والمكابرة مع ذلك أجدر بالتعجب به".[5]

---

(١) نظم الدرر: ٧/ ١١٨.

(٢) المصدر السابق: ١١/ ٥١٠.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٣٤.

(٤) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٢/ ١١٦.

(٥) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٣٦.

خامساً: المتأمل للأفعال التي خُتمت بها آيات التصريف وهي قوله ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقوله ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]،وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقوله ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧] يجد أن مفعول هذه الأفعال في كل المواضع جاء محذوفاً، وقد جاء هذا الحذف متوافقا مع مكانة هذا التصريف، وعظم أثره على كل من تلقَّى القرآن، سواء كان مؤمناً أم كافراً، فالغرض من هذا الحذف: إرادة العموم، وعدم التقييد في المذكور، فقد أُريد العموم لتذهب النفس في تقديره كل مذهب، ولو ذُكر المفعول لانحصر الذهن في المذكور، ومن هنا " صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذُكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان".[1]

وفي هذا الحذف إبراز لأثر هذا التصريف، وثناء على المؤمنين في إقبالهم على القرآن، حين صُرفتْ لهم آياته، فقد فقهوا كل ما جاء فيه عن ربهم، وعلموا كل حكمه، وغاياته، وشكروا ربهم بجميع أنواع المحامد كلها، كما أن فيه نعياً وذماً على الكافرين من خلال موقفهم من تصريف هذه الآيات، ولذا فهم يصدفون عن كل شيء، ويعرضون عن كل ما جاء فيه من غير تحديد أو تعيين، وفي هذا مزيد ذم لهم، وعتب عليهم، كما أن قوله ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ دعوة عامة لهم إلى الإقلاع عما هم متلبسون فيه من الكفر والتكذيب والإعراض والعناد، إشارة إلى كثرة ما وقعوا فيه، وإلى تنوع مواقفهم وتعددها من القرآن الكريم، وممن أُنزل عليه القرآن، ومن هنا جاء الحذف إشارة إلى هذه المعاني كلها، ودلالة عليها، ولذا فقد تم توظيف أسلوب الحذف في إبراز مكانة هذا التصريف، وإبراز أثره، وقوة تأثيره على الناس جميعاً، والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٧٧ .

سادساً: التأكيد الذي صُدرتْ به بعض آيات التصريف، فقد تم تأكيدها بـ" لقد"، وقد جاء هذا التأكيد في أربعة مواضع من آيات التصريف، وذلك في: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

وفي مجيء التأكيد في هذه الآيات وتتابعه بهذه الطريقة دعوة إلى النظر فيه، وتأمل أسراره وحِكمه، إذ لا يخفى أن للتوكيد أسرارا وحكماً، كما أن له مقاماته وسياقاته، يدل على ذلك قول العلوي: " ولا يخفى موقعه البليغ، ولا علو مكانه الرفيع، وكم من كلام هو عند التحقيق طريد حتى يخالطه صفو التأكيد، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد، و قاعدة في التجويد".[1]

فما بلاغة هذا التأكيد؟ وما علاقته بآيات تصريف المعاني في هذا المقام؟ لم يكن الباعث من هذا التأكيد – والله أعلم – مراعاة حال المخاطب، ومن ثَم جاء الخبر إنكارياً نظراً إلى درجة الإنكار القائمة في نفوس المخاطبين، كلا فليس هذا هو الغرض، إذ لم يدر في نفوس المخاطبين به إنكار لهذا التصريف، ومن ثَم جاءت الآيات مؤكدة بهذه المؤكدات؛ لتواجه هذه الإنكار، وتقتلعه من جذوره، كما أن بلاغة التوكيد وبواعثه أكبر من أن تُحصر في هذا الأمر، بل إن هذا الأمر جزء من أغراض التأكيد وهو النظر إلى حال المخاطب، وثمة أغراض بلاغية للتوكيد باعثها الخبر نفسه، وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى إلى هذه الأغراض، يقول: " وأما دواعي التوكيد وأغراضه فقد ضاق صدري بحديث المتأخرين حينما أداروه حول مواجهة إنكار المخاطب التحقيقي أو الاعتباري، وكأن جواب أبي العباس المبرد على سؤال الكندي المتفلسف كان محيطاً بدواعي

(١) الطراز: ١٧٦/٢.

التوكيد وأسراره في هذه اللغة فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب، وهذا قصور كثير في فهم هذه الخصوصية التي هي من أدق الخصائص البلاغية وأكثرها صلة بالحس والشعور، وأكثرها شيوعاً في الكلام كله".[1]

ولذا فالغرض من توافر هذا التأكيد في آيات التصريف منظور فيه إلى قيمة هذا الخبر، وما تضمنه من حِكم ومقاصد، فالغرض من التأكيد مرتبط بالخبر نفسه، ومتعلق بمضمونه، إذ المراد تقرير هذا التصريف، وبيان محاسنه، وذكر حِكمه، وموقف الناس منه، وبيان كيفية الانتفاع منه، فكأن الغرض من هذا التأكيد إرادة تثبيت هذه المعاني في النفوس، وتقريرها حتى وإن كانت خالية من كل معنى من معاني الإنكار، ولا شك أن في هذا التأكيد حفاوة بمضمونه، واهتماماً بما تضمنه، فيكون هذا مظهراً من مظاهر الاهتمام به، وأنه جدير بالعناية والرعاية.[2]

ولذا فإن مما يدل على أهمية هذا التصريف، وعظيم خطره ونفعه أن يُساق ابتداء بهذه المؤكدات إشارة إلى أهميته، وجليل شأنه، وعظيم أثره، إذن فهذا التأكيد منظور فيه قيمة الخبر نفسه، إشارة إلى مكانته، وتأكيداً على أهمية تصريف هذه الآيات، وذلك أبلغ من أن يكون الغرض من هذا التأكيد منظوراً فيه إلى حال المخاطب، وكأن هذا الإنكار ردة فعل من حال المخاطبين حيال موقفهم من القرآن الكريم، والله أعلم بأسرار كتابه.

سابعاً: متشابه النظم في آيات تصريف القرآن الكريم:

جاء الحديث عن تصريف آيات القرآن الكريم في عشرة مواضع كما سبق ذكرها وبيانها، ويُعد الحديث عن التصريف من خلال هذا الآيات نموذجاً تطبيقياً لهذا التصريف، وقد تمت الإشارة إلى التنوع والتفنن وتكرار الحديث عن هذا التصريف، وترديد القول فيه ترديداً من خلال هذه الوقفات، ومن خلال تصريف هذه الآيات ظهرت كثير من الخصائص

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٣ .

(٢) يُنظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٣ .

الموضوعية والأسلوبية لهذا التصريف في الحديث عن تصريف آيات القرآن الكريم، ولذا فإن القرآن الكريم وبلاغته من خلال هذا التصريف هو الأجدر أن ينصرف إليه تعريف ابن أبي الإصبع للتصريف حين قال: " وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور، اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض، فتارة يأتي به في لفظ الاستعارة، وطوراً يبرزه في صورة الإرداف، وآونة يخرجه مخرج الإيجاز، وحيناً يأتي به في ألفاظ الحقيقة"[1]، وذكره تحت عنوان " الاقتدار".

ومن هنا رأينا هذا التنوع والتفنن والاقتدار في الحديث عن هذا الموضوع من خلال هذه الآيات، ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أبلغ منه حديثاً، وقد جاء الحديث في غاية البيان، وفي غاية البلاغة والجزالة، وقد تنوعت الموضوعات، واستوعبت هذه الموضوع من جميع جوانبه، وعبرت عنه بهذا الأسلوب البليغ الجزل، كما تم إبرازه بصور عدة، وقوالب متعددة، كما تم فيه توظيف الأساليب البلاغية في إبراز هذا المعنى وإظهاره في أحسن صورة، وأبهى حلة، ومن هنا جاء الاختلاف في آيات التصريف فيما بينها تقديماً وتأخيراً، حذفاً وذكراً، متغايرة فيما بينها في الحقيقة و المجاز، وفي استخدام فنون البديع، فتفاوتت فيما بينها تفاوتاً أظهرت بلاغة المتكلم، وتفاوتاً في الأسلوب، ولكنها اتفقت في المقصود والمآل، وهذه وقفة مع بعض آيات التصريف التي ظهر فيها هذا التنوع وتجلى فيها هذا التفنن في عرض هذه الحقيقة وذكرها من خلال تصريف هذه الآيات.

وهذه الآيات هي: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: ٨٩]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

(١) بديع القرآن: ٢٨٩.

وقد أشار ممن كتب في متشابه الآيات إلى هذه الآيات الثلاث، ولعل من أبرز الإشارات وأقدمها حديث محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الإسكافي (٤٢٠)[١]، وكذلك محمود بن حمزة الكرماني (٥٠٥)[٢]، وكذلك أحمد بن الزبير الغرناطي (٧٠٨)[٣]، وقد جاء حديثهم عن هذه الآيات في ضوء الحديث عن التشابه اللفظي في القرآن الكريم، فهم لم يدرسوا هذه الآيات في ضوء الموضوع المتحدث عنه، كما لم يشيروا إلى موضوع التصريف الذي تم فيها، وقد سبق الحديث عن هذه الكتب[٤]، ومع ذلك فقد أفدتُ من هذه الكتب، وأفدتُ من كلامهم عن هذه الآيات من خلال حديثهم عن وجوه الاختلاف فيما بينها، ووجوه الاتفاق كذلك.

ومما اتفقت فيه هذه الآيات الثلاثة في الافتتاح الذي افتُتحت فيه كل آية، فجاءت بداية كل آية بقوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾، وقد سبقت الإشارة إلى دلالة التوكيد في قوله ﴿ وَلَقَدْ ﴾، والإشارة – كذلك – إلى دلالة الإسناد إلى ضمير العظمة في قوله ﴿ صَرَّفْنَا ﴾، وارتباطه بموضوع تصريف الآيات، وبيان أثره كذلك في إظهار مكانته، وبيان عظمته.[٥]

كما اتفقت – كذلك – في الإشارة إلى القرآن الكريم باسم الإشارة القريبة "هذا"، وفي الإشارة إلى القرآن باسم الإشارة القريب دلالة على قرب القرآن ممن أقبل عليه، وانتفع به، وقرب أثر هذا التصريف عليهم، ففيه إشارة إلى قرب القرآن منهم، وقربهم منه، وقربهم من الانتفاع بمواعظه، والانتفاع من حِكم هذا التصريف، ولذا فالقرآن أقرب إليهم من كل قريب إنْ آمنوا به، واقبلوا عليه.

وإن ورود التصريف والحديث عنه من خلال هذه الآيات في هذه المواضع يُعدُّ مظهراً من مظاهر التفنن في إيراد هذا المعنى بهذه الأساليب المتعددة، بيد أن بلاغة القرآن

---

(١) يُنظر: درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

(٢) يُنظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن ١٦٦.

(٣) يُنظر: ملاك التأويل ٢/ ٦٢٩ .

(٤) يُنظر: صفحة: ٤٦ من البحث .

(٥) يُنظر: صفحة: ٧٥ من البحث .

الكريم لا تقف عند هذا الحد، ولم تأت لهذا الغرض، بل تتجاوز ذلك إلى غايات وحِكم وأسرار ترتبط بغايات هذه الآيات، وبإظهار مقاصدها، وتحقيق غاياتها، ولذا فجاء الاختلاف بينها لارتباط كل آية بالسياق الذي وردت فيه، وبالغرض الذي نزلت لتحقيقه، وبالمعنى المراد بيانه وتقريره.

ومن هنا وقف العلماء مع هذه الآيات فذكروا أبرز الفروق بينها، وسبب هذا الاختلاف وغاياته، والمتأمل لهذه الآيات الثلاث ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

يجد الاختلاف والتنوع البديع بين هذه الآيات، فما حكمة هذا التنوع؟ وما سرُّ هذه المغايرة في الحديث عن تصريف آيات القرآن الكريم؟ ومن الاختلاف بين هذه الآيات، خلو الآية الأولى من لفظة " الناس"؛ لتقدم ذكرهم في الآيات التي تسبقها، فما زال الحديث موصولاً عنهم، فذكرهم أولاً أغنى عن إعادته مرة أخرى في هذه الآية[1]، كما أن الخطاب في هذه الآية لكفار قريش بدلالة الآية التي قبلها وهي قوله ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]

ولذا لم تأت لفظة "الناس" في هذا المقام، لتوجه الحديث مع المشركين[2]، وفي هذا مزيد عتاب عليهم، أن يكون هذا موقفهم من القرآن رغم ما تم لهم فيه من البيان والإيضاح، وتصريف الآيات، وكان جديراً بهم أن يكون ذلك سبباً لهم إلى الإيمان به، والإقبال عليه، ولكنهم كفروا وكذبوا، وأعرضوا، بالرغم من تكرار هذا الهدايات عليهم والبينات، ولذا خُتمت الآية بقوله ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

---

(١) يُنظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٦

(٢) يُنظر: ملاك التأويل: ٦٢٩/٢ .

كما أن عدم ذكر لفظة "الناس" في هذه الآية؛ إبهاماً للقول؛ "ليحيط بأنواع تصاريف الكلام من الخبر و العبر، و صرب المثل، والأمر والنهي، والوعظ والزجر، إذ كان فيما قبله كل ذلك"[1].

وأما ذكر لفظة "الناس" في الآية الأخرى، فلم يسبق ذكرهم في الآيات التي قبلها، بل ذُكر قبلها الحديث عن الإنس والجن معاً في قوله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ففي ذكر لفظة "الناس" في هذه الآية تصريح بهم، وإشارة إلى أنهم هم المراد من هذا التصريف، فهم المخاطبون به، وكأن التحدي متوجه إليهم، وإنما جاء ذكر الجن تبعاً لهم، وذُكروا في ركابهم[2]، ولذا فإن ذكر لفظة "الناس"، والتصريح بها، دعوة لهم " ليهتموا بتفهمه، ويعنوا بتدبره، ويقفوا عند أوامره، وينتهوا عن زواجره، فكان موضع الآية يقتضي تقديم "الناس"؛ على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم بذكره أتم"[3]، ولذا فإن مجيء هذه الآية بعد آية التحدي كان له الأثر في مجيء هذه الآية بهذا النظم، وفي ذكر لفظة "الناس" في هذا المقام.

أكد هذه الحقيقة، وأشار إليها الطاهر بن عاشور، فذكر أن الحكمة من ذكر "الناس" في هذا الموضع؛ إشارة إلى " أن هذه الآية واردة في مقام التحدي والإعجاز، فكأن الناس مقصودون به قصداً أصلياً، مؤمنهم وكافرهم، بخلاف الآية المتقدمة فإنها في مقام توبيخ المشركين خاصة، فكانوا معلومين".[4]

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

(٢) يُنظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٦

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٥٤/١٥.

ولأن الحديث في هذه الآية عن الإعجاز ذُكر قوله ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ دون الآية التي قبلها، ولا شك " أن ذكر ذلك أدخل في باب الإعجاز؛ فإن كثرة أغراض الكلام أشد تعجيزاً لمن يروم معارضته على أن يأتي بمثله".[1]

وأما ذكر لفظة "الناس" في سورة الكهف، فقد أصاب المحز، وحقق الغرض؛ لارتباط هذه الآية بما قبلها من الآيات، وبيان ذلك أنه "لم يقع قبلها ذكر الثقلين فيحتاج إلى ذكر تقديم الناس، كما احتيج في آية الإسراء.... ولكون الخطاب عاماً في الآيتين لم يكن بد من ذكر الناس، بخلاف الآية الأولى في سورة الإسراء، إذ خطابها خاص بالقائلين من كفار العرب: إن الملائكة بنات الله – تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً – فقد ورد كل من هذه الآيات على ما يناسب ويلائم ما اتصل به".[2]

كما أن ثمة اختلافاً آخر في هذه الآيات من حيث التقديم والتأخير، فقد قُدم لفظة "الناس" في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وفي موضع آخر قُدمت لفظة " القرآن" عليها كما في آية الكهف، في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]، والغرض من هذا الاختلاف – والله أعلم – أنه قُدم في كلا الموضعين ما هو أولى بالعناية والاهتمام؛ بناء على غرض الآية، والمعنى المراد بيانه وتقريره، فقد سبقت الإشارة إلى أن ذكر الناس في سورة الإسراء؛ لأنهم هم المقصودون بهذا الخطاب، وبهذا التصريف، وأن في ذلك تشريفاً لهم وتحديداً، فجاء تقديمهم بالذكر؛ إشارة إلى هذا المعنى، فالحديث عنهم، وهم المراد من ذلك كله، أما في سورة الكهف فالحديث عن القرآن في إظهار شرفه، وبيان مكانته، وجاء ذكر الناس تبعاً له، وإلحاقاً به، وبيان ذلك أن سبب تقديم " في هذا القرآن" في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]؛ "لأن ذكره

---

(١) المصدر السابق: ١٥/٢٠٥.

(٢) ملاك التأويل: ٢/٦٣٠.

جل الغرض، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، فأوحى الله إليه في القرآن، فكان تقديمه في هذا الموضع أجد، والعناية بذكره أحرى".[1]

ومن هنا جاء تقديم "القرآن" إشارة إلى الأحداث التي وقعت في هذه السورة "من ذكر أصحاب الكهف، وما سُئل النبيﷺ عن الإخبار به مما لم يقدر عليه إلا بأن يُوحى إليه، وكان جميع ذلك من خبر موسىﷺ، وقصة ذي القرنيين بعدهما مما أودع القرآن وتضمنه الكتاب، فقال في هذا المكان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، للدلالة على ما طلبوه من النبي، وما قد أوحى الله به إليه في كتابه، فكان تقديم ذلك في هذا المكان أولى، والله أعلم".[2]

يدل على أن المراد في هذا المقام الحديث عن القرآن ذُكر قوله ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ففي ذلك إظهار لعظمة هذا القرآن، وإبراز لمكانته أن ذُكرت فيه الأمثال، وصرفت فيه الآيات والعبر والقصص والأخبار، وقد تجلى ذلك كله في سورة الكهف.

ولذا جاء ختام الآية بقوله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ متوافقاً مع هذا التقديم أتم الموافقة، فالبرغم مما تضمنته هذا القرآن من البيان والتصريف إلا أن الإنسان لم يقبل عليه، ويؤمن به، بل زاده ذلك إصراراً وعناداً، وسؤالا وجدلاً؛ ذلك لطبيعة هذا الإنسان، وما جُبل عليه، وليس ذلك راجعاً إلى القرآن وما تضمنه، فقد جاء بالبينات والهدى التي من حقها الإيمان بها، والانقياد لها، ولكن الإنسان أعرض عن ذلك كله ونأى بجانبه، ولا غرو فهو كما ذكر عنه ربه، وحكم عليه بقوله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

* * *

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٧.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

الخاتمة

وبعد فهذي هي نهاية المطاف لهذه الرحلة الماتعة، ولهذا الإبحار الجميل، والصعب الشائق في الوقت نفسه مع آيات تصريف المعاني في القرآن الكريم، التي نعمتُ بصحبتها، والتنقل في أرجائها، وسعدت بالاستراوح بظلها وظليلها، وبعد الغوص في أعماق درر هذه الآيات البيانية، والنظر في أسرارها البلاغية، والنظر في معنى التصريف ودلالاته، وحِكمه وأسراره، بعد ذلك كله تصل هذه الدراسة إلى خاتمتها، وتقف عند نهايتها، علها أن تكون قد حققت غايتها، وبلغت مبتغاها، وثمة نتائج قد أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يأتي:

أولا: أن التصريف لفظة قرآنية، وردت بهذا المعنى في عدة مواضع من القرآن الكريم، وفي سياقات متعددة، كما ورد هذا المصطلح في كتب بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين في الحديث عن بلاغة القرآن وإعجازه، كما أن هذا التصريف منهج قرآني كذلك، اتخذه القرآن وسيلة في بيان معانيه وذكرها، وبسط القول فيها، وتنوع في عرضها.

ثانياً: أن آيات التصريف في القرآن الكريم جاءت شاملة في الحديث عن هذا الموضوع من جميع جوانبه، فقد ذكرت حكمه وغاياته، وموقف الناس جميعاً منه المؤمنين والكافرين على حد سواء، ولذا كانت هذه الآيات المرجع في الحديث عن هذا الموضوع، ولذا قام هذا البحث على التأمل وطول التدبر، وإمعان النظر، والقراءة في التفاسير، وكلام الأئمة.

ثالثاً: أن مصطلح التصريف لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه من الاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، على النقيض من ذلك المفسرون، فإن لهم جهوداً بارزة في بيان معنى التصريف، وذكر غاياته وحِكَمه من خلال تفسيرهم للآيات التي ذُكر فيها التصريف، ولذا فقد ذكرتُ المعنى الاصطلاحي للتصريف من خلال كلام المفسرين، وبيان معانيهم لمعنى التصريف، وبيان المراد به.

رابعاً: أن لتصريف آيات القرآن حِكماً سعت إلى تحقيقها، وغاية ترنو الوصول إليها، ولأهمية هذه الحكم تم الحديث عنها، وإبانتها، بل النص عليها في آيات التصريف في القرآن، وقد تم ذكر هذه الحكم في آيات التصريف، وقد تعددت هذه الحكم بتعدد آيات التصريف، وبتعدد المقامات التي تنزلت فيها هذه الآيات، وبتعدد أحوال المخاطبين بها، وبتعدد مواقفهم من القرآن الكريم.

خامساً: انقسم الناس حول تصريف آيات القرآن الكريم، والانتفاع منه قسمين: الأول، وهم المشركون، وقد تم الإبانة عن موقفهم تصريحاً من خلال آيات التصريف، والقسم الآخر: هم المؤمنون، وقد تضمنت آيات التصريف الإشارة إليه تصريحاً وتلميحاً.

سادساً: أن للتصريف علاقة بإعجاز القرآن الكريم، بل هو وجه من وجوه إعجازه، وقد أشار البحث إلى عدة أمور تؤكد على أن تصريف آيات القرآن الكريم بالطريقة التي تزل بها القرآن، وذكر فيها موضوعاته ومعانيه أن ذلك معجز، وأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن التي لا تُحدُّ ولا تُعد.

سابعاً: أن للرماني جهوداً وإشارات متقدمة سابقة في موضوع تصريف آيات القرآن الكريم، وقد تحدث عن هذا الموضوع من جميع جوانبه، وأتى على معظم عناصره، ويكاد يكون أول من تحدث عن هذا الموضوع، وقد تناولتُ في هذا البحث جهد الرماني في هذا المجال، وكان الأولى على من جاء بعده أن يكمل المسيرة، وأن يضيف عليه اللبنات تلو اللبنات، ويتناوله تنظيراً وتطبيقاً، ويبدأ من حيث انتهى إليه الرماني، شأنه في ذلك شأن كثير من الأساليب البلاغية التي تعاقب عليها العلماء بالدراسة والبيان، والإضافة والتمحيص والتعليق، ولكن هذا لم يحدث.

ثامناً: هناك دراسات أفادت من التصريف، وانطلقت منه، ودرست الآيات التي تم تصريف القول فيها، قديماً وحديثاً، سواء كان ذلك على مستوى الآيات أو الموضوعات، وهذه المؤلفات مع أهميتها وجليل نفعها، إلا أن فيها شيئا من النقص والقصور، وذلك أنها تنطلق في دراستها من الآية والآيتين اللتين وقع فيهما التشابه دون الالتفات إلى

سياق كل آية، واختلاف مقام كل آية عن الأخرى، ودون الإشارة إلى موضوع كل آية، ودون ضم النظير إلى نظيره؛ للوقوف على المعاني التي تم تصريفها، والتنوع في بيانها، والتفنن في ذكرها في تناول هذا الموضوع المتحدث عنه.

تاسعاً: أن مصطلح التصريف أبلغ وأفضل وأولى – في نظري – من مصطلح " التشابه اللفظي" في القرآن الكريم، ومع ما تضمنته هذا النوع من الدراسات من الفائدة والجدة، إلا أنها ضيقت دائرة الدراسة، وحصرت التشابه وأوجه الاختلاف في الألفاظ، مع أن تغير الألفاظ وتشابها بناء على تغير المقامات، واختلافها، وارتباط كل لفظة بالغرض الذي جاءت لتحقيقه، وبالمعنى الذي جاءت الآية لبيانه وإيضاحه، وإلا فإن دائرة الدراسة أوسع وأشمل، وما الألفاظ إلا جزء من هذا التصريف، فضلاً أن التصريف لفظة قرآنية، تكررت في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما أنه منهج قرآني كذلك، اتخذه القرآن وسيلة في بيان معانيه وذكرها، وبسط القول فيها، وتنوع في عرضها.

عاشراً: أن جميع آيات التصريف نازلة في العهد المكي، ولذا أخذت هذه الآيات خصائص العهد المكي الموضوعية والأسلوبية، وقد تمت الإشارة إلى دلالة هذا الأمر، وذكر شيء من حكمه وغاياته، وتبعاً لذلك جاءت آيات تصريف المعاني في القرآن الكريم محملة بكثير من الخصائص الأسلوبية للآيات المكية، وقد تم بسط هذه القضية في ثنايا هذا البحث، في بيان ما تميزت به هذه الآيات في أسلوبها، وما انطوت عليه من أسرار بلاغية، ونكت بيانية.

الحادي عشر: جاءت آيات تصريف الآيات في القرآن الكريم على قدر كبير من البلاغة والجزالة في القول، وقد تم توظيف ذلك كله في الدلالة على أهمية هذا التصريف، وعلو قدره وشأنه في البلاغة والإعجاز.

* * *

ثبت المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢. أساس البلاغة، لجار الله الزمخشري، دار ومطابع الشعب، القاهرة: ١٩٦٠م .

٣. إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط: السادسة.

٤ـ الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، د. عبدالغني محمد سعد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الأولى: ١٤٠٩هـ .

٥. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ على محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

٦. بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر.

٧ـ البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.

٨. البرهان في متشابه القرآن، لمحمود بن حمزة الكرماني، قدم له وراجعه على أصوله: أحمد عز الدين الخلف، دار الوفاء، المنصورة، ط: الأولى: ١٤١١هـ .

٩ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الثانية، ١٤٠٨هـ .

١٠ـ بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول، دار المعارف، القاهرة، ط: الرابعة، طُبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

١١. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، دار الحديث القاهرة.

١٢. التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور.

١٣. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٤. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١٥. التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، سلسلة الرسائل الجامعية.

١٦ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى: ١٤١١هـ.

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ .

١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، ط: الأولى: ١٤٢٢هـ .

١٩. حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحيي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٠. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

٢١خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، للدكتور الشحاث محمد أبوستيت، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٢هـ .

٢٢. دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، للدكتور المحمدي عبدالعزيز الحناوي . دار الطباعة المحمدية، ط: الأولى: ١٤٠٤هـ

٢٣. درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٦هـ .

٢٤. ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط: الخامسة.

٢٥. الرسالة الشافية، لعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط: الرابعة، طُبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٢٦ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، ضبطه وصححه على عبدالباري عظيمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٧. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٢٨. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٩. في إعجاز القرآن الكريم: محمد بركات حمدي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط: الأولى: ١٤٠٣هـ

٣٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط: الثانية عشرة: ١٤٠٦هـ.

٣١. القاموس المحيط، للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ.

٣٢ـ الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ.

٣٣. لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ.

٣٤ـ متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام، للدكتور عبدالجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٣هـ

٣٥ـ محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.

٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

٣٧. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ.

٣٨. معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٤هـ.

٣٩. معجم البلاغة العربية، للدكتور بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط: الثالثة: ١٤٠٨هـ

٤٠. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط: الثانية، ١٩٩٦م

٤١ـ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ.

٤٢. مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط: الثانية: ١٤١٨هـ.

٤٣. المكي والمدني في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور محمد الشايع، ط: الأولى: ١٤١٨هـ.

٤٤ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٦هـ.

٤٥. من أسرار تنوع النظم القرآني في قصة زكريا عليه السلام، للدكتور أحمد السيد طلحة، ط: الأولى: ١٤٢٤هـ

٤٦. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من آي التنزيل، لأحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت: ١٤٠٥هـ

٤٧ـ النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن الرماني، دار المعارف، القاهرة، ط: الرابعة، طُبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٤٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣هـ.

* * *